عماد عشا

سَأَنْسَاك

(رواية)

إرم

عماد عشا

سأنســـــــاك

(رواية)

تصميم الغلاف : إرم

رقم الإيداع القانوني:

2019MO0887

ISBN 978-9920-37-134-6

الطبعة الأولى

L'imprimeur PIAM

OFFSET - NUMERIQUE - FINITION
GRAVURE & DECOUPE LASER

Aimadacha90@gmail.com

إهداء :

إلى فاطمة

إن يوم الفراق أفظع يوم

ليتني مت قبل يوم الفراق

ابن عبد ربه الأندلسي

1

قدماه متورمتان. الامتقاع بين على محياه. جسده مسه الكثير من النصب. يركز نظره على الجروح التي في رجليه وقلبه ينتابه الألم. هذه الرحلة التي تتكرر معه كل صبح تجعله يحس أن لا فرق بينه وبين أهل جهنم، فأولئك تبدل جلودهم كلما نضجت بجلود غيرها. وهو يطاف به مكرها في الجبال والقفار حافي القدمين صبح كل يوم دون أن يحدث أن يتأخر حسن عن موعده أو يغيب، إن قرارات الإنسان هي التي تلقي به إلى جحيم الآخرة أو إلى مثل هذا الجحيم الدنيوي. زوجه مريم مستلقية بجانبه على السرير لا يغمض لها جفن، يؤرقها حاله بعد ما عرفته من أمره هذه الليلة.

ما يزال جمال يتذكر يوم عثر على حساب فيسبوكي مصادفة، فاستوقفه خاطر غريب ألح عليه أن يبعث رسالة لصاحبة هذا الحساب، لأن صاحبته بطنجة، وهو يحب طنجة وتهواها نفسه. بعث إليها برسالة نصية وأجابته بعد مرور بعض الوقت، ظنته مشرقيا لأنه كان يكتب بلغة عربية فصيحة وهكذا اعتاد. سألت من أي وطن هو؟ فكان بحذق يتهرب من الإجابة ويدعي أنه كوني ينتمي لكل الأوطان. أوهمتها لغته الفصيحة أنه من الخليج فكانت تكتب إليه بود كبير، طفقا يتحدثان في أشياء كثيرة علم من خلالها أنها كانت تمارس الخياطة وأنها في سن الرابعة والخمسين، تعلق بها أشد التعلق. ربما

لأنه في قرارة نفسه كان بحاجة لحنان معتق لا تمتلكه غير امرأة في هذه السن، حنان قد يخيط جروح وفتوق قلبه..

ذات مساء كتب لها دون مقدمات:

ـ أمينة أنا مغربي، ومن أبناء بلدك؟

قرأت الرسالة ولم تعقب ولو بحرف واحد. فهم ما يحدث فلم يعد يكتب لها كما السابق، بل اكتفى بأن يتمنى لها كل مساء ليلة هنيئة. وكانت تقرأ ولا تجيب. استمر يتمنى لها كلما تهيأ ليخلد لنومه أحلاما سعيدة تارة أو ليلة وردية تارة أخرى.

كانت تقرأ ولا تجيب، بعد مرور بعض الوقت صارت لا تنام إلا بعد أن تقرأ رسالته، وكثيرا ما كان الداعي لولوجها شبكة التواصل الاجتماعي أن تقرأ رسالته فقط. بعد شهر تقريبا توقف عن هذه العادة متعمدا. في اليوم التالي راسلته تطمئن على حاله، ابتسم بخبث، شعر أنه استرعى اهتمامها. وعودّها على تلك العادة. أخبرها أنه بخير وأن مرضا ألم به فحال دون أن يتمنى لها ليلة سعيدة، وتأسف بلباقة كبيرة...

في اليوم الموالي ولج شبكة التواصل الاجتماعي ليجدها نشطة، راسلته فانتابه السرور، لكنه سرور سرعان ما انقلب إلى وجوم، كانت الرسالة هكذا:

ـ مرحبا أنا ابنة أمينة، هل تأذن لي بأن أستفسرك عن نوع العلاقة التي تجمع بينك وبين والدتي؟

ظن هذا نوعا من الخداع فحاول جهده ليتبين الأمر، لكن اتضح له بعد محادثة طويلة أنها الابنة حقا وليست الأم، اطمأن إليها واطمأنت إليه، ومدته بحسابها الشخصي، واتفقا معا أن لا يخطرا أمينة بالأمر، تحدثا أياما علم عنها كل شيء حتى التفاصيل الصغيرة المتعلقة بحياتها، في حين لم تعرف هي غير اسمه، كانت تشعر بطمأنينة عجيبة وهي تتحدث إليه، ولم يكن عجيبا أن ينشأ بينهما نوع من الحب الذي كان يستفحل يوما بعد يوم إلى أن ملك قلبيهما وسلما له القياد.. قالت له ذات يوم أنها تتوق للهرب إلى مكان بعيد لا يعرفها فيه أحد، وكم كانت لتكون سعيدة لو كان هو معها. استحسن الفكرة.. ووافقت هواه، فأبدى استعداده للهرب معها، كان هو أيضا محتاجا للهرب من عزلته خاصة بعد الحادثة المؤسفة التي ألمت به تلك الأيام ولم يحدث لها منها ذكرا، ومن كل الناس الذين يعرفونه ليبدأ حياة جديدة.

اتفقا على الهرب بعيدا والسير في الأرض، وفي اليوم الموالي هاتفته لتخبره أنها استقلت الحافلة قادمة من مدينة خنيفرة، وأنها ستبلغ بني ملال في غضون ثلاث ساعات على أبعد تقدير، حمل حقيبته التي أعدها مسبقا وتسلل دون أن يشعر به أحد. بلغ المحطة وشرع ينتظر وصول حافلتها، ندم على مجيئه المبكر، فكم يكره الانتظار والترقب لأنهما يحدان من حريته، لكنه حاول أن يشغل نفسه بالتفكير في الأمور الجيدة. تحدث إلى الكثير من المسافرين الذين أضناهم الانتظار مثله، وتصفح هاتفه غير ما مرة... إلى أن رمق

حافلته المنشودة تدخل بوابة المحطة. شعر بالرهبة، لأول مرة توجس خيفة ألا تكون المرأة كما في الصور، فكثيرا ما لا تطابق الصور الحقيقة بعد هذه الثورة التكنولوجية التي عرفها العالم، ترجل بعض المسافرين، وانتظر أن تظهر، فجأة رأى ساقا جميلة تطأ الأرض، يتبعها قد ممشوق فيه بعض الامتلاء، وما إن رفع بصره حتى صعق. هل تلك هي حليمة؟ إنها تشبه التي رآها في الصور، إلا أن هذه أبدع وأجمل. اتجهت نحوه بثغر متبسم، تصلب في مكانه. سحره طرفها الكحيل، وتلكما الشفتان اللتان لو قبلتهما ببعض العنف لتفجر الدم منهما، لم يكن بهما أحمر شفاه لكنهما كانتا فضاحتين، تغريان بشهية القبل، وقفت أمامه وحيته، لكنه لم ينتبه، لم يسمع إلا صوتا عذبا ينساب إلى روحه، استهواه أنفها الدقيق الذي لم يخلق إلا لاستنشاق عبير الورود، سحره شعرها الغجري المنساب على كتفيها كخيوط من حرير.. وضعت يدها على كتفه وحركته بلطف كي ينتبه لوجودها، كان يتأمل عينيها، يتأمل تلك الأهداب التي تلقي بظلالها على وجنتيها، لم ينطق بكلمة، ضمها إليه كمسافر كاد يقتله الظمأ.. همست في أذنه:

ـ جمال؟ الناس ينظرون إلينا.

ـ تظاهري أننا أقارب نلتقي أول مرة.

دفعته برفق، ود هو لو يبقى على هذه الحال يستنشق ذلك العطر الذي هيج أحاسيسه وبث فيها أحاسيس كثيرة. ساعدته في وضع حقيبته في صندوق الحافلة، ثم أمسكت بيده كطفل صغير

تقوده إلى مقعده الذي حجزته من قبل بجانبها، جلسا في مقعديهما. نظرت إليه بابتسامة تكشف عن أسنان بيضاء متراصة بانتظام كأنها حبات لؤلؤ ثم عادت تنظر أمامها ونطقت بصوت تلين له حتى القلوب القاسية:

ـ الأمر جنوني أليس كذلك؟ أن نلتقي ونسافر هكذا.

ـ ربما. لكن الجنوني حقا هو أن تخبريني أنك في الثامنة والثلاثين من العمر، وأنت في الحقيقة تبدين كفتاة في العشرين ...

، شكرا على هذا الإطراء، لكن هذا لا ينفي حقيقة أني بلغت من الكبر عتيا.. إن ما قلته عني إنما يصح فيك أنت لأنك لا تبدو في سن الثلاثين.

كان بالفعل يبدو أصغر سنا كأن الزمن لا يؤثر فيه، وهو يرد ذلك لأسباب كثيرة لا تخضع لمنطق، منها مقاومته للزمن، وأشياء كثيرة أخرى. انطلقت الحافلة تطوي المسافات، وصحا جمال من السكر الذي ألقاه فيه ذلك الحسن، لكنه ما فتئ أن شرد ذهنه، شعرت بشروده فظنت أنه ندم على اصطحابها، فقالت:

ـ ما بك يا جمال؟

ـ أنا كثير الشرود يا حليمة، وكثيرا ما ستريني على هذه الحال، إلا أن ذهني شرد هذه المرة لسببين، السبب الأول يتعلق بطبيعتي والسبب الثاني هو تشكيلك، صدقيني إن قلت لك أني لست ممن تستهويهم الأجساد الفانية، إنما أنا من القلائل الذين يتعلقون بالروح

قبل الجسد، لكنك زعزعت هذا التعلق وإني أكاد أصبأ من ذلك الرأي، فإن لك جسدا يثير لواعج الفؤاد ولو كنت ممن يشرعون القوانين والنظم لأصدرت مرسوما يحرم لمس هذا الجسد، ولأوصيت به أن يحفظ في متحف للفنون الجميلة.

راقها هذا الإطراء، وكيف لا يروقها وهي التي تعتد بجمالها وتقدسه حد العبادة. وأرادت أن تتظاهر ببعض التواضع لتواري خجلها:

ـ إن هذا الجسد يشيخ يا جمال، إن عيناك فقط من تبصر ذلك الحسن إن صح أن وجد.

ـ أنت ثمرة ناضجة يا حليمة، والثمر الناضج فقط له حلاوة، ولا يزعجنك تقدمك في السن فبعض الأشياء تصبح أجمل وأثمن وأغلى كلما تقادم بها العهد... ولا أظنك تجهلين أن الخمرة المعتقة أجود ما في الخمر، وأكثر ما يطلب الناس إن وجدوا إليها سبيلا، بل إن من الناس من يبذل أموالا كثيرة من أجل الحصول عليها...

أطلقت ضحكة ساحرة تسر لها النفوس، وتستلذها الأسماع ثم قالت:

ـ سامحك الله، ألم تجد شيئا آخر غير الخمر لتعقد مقارنة بيننا؟

ـ بلى يا عزيزتي، خطرت ببالي أشياء كثيرة، لكني تعمدت أن أقارن بينك وبين الخمرة المعتقة لأن كلا منكما يسكر ويفقد ذا اللب لبه.

هنا "بخميس آيت عميرة" ضواحي أكادير ذو حظ كبير من يملك منزلا خاصا في هذه البقاع، فالسواد الأعظم من الناس يقطنون في غرف للإيجار صحبة أسرهم أو مع مكترين آخرين، غرف قلما تتوفر على نوافد تسرب الهواء أو قبسا من أشعة الشمس لعل الرطوبة عنها تنجلي، حشرنا أنفسنا بين هؤلاء الناس واكترينا غرفة الزنزانة أفضل منها ولو بقليل، غرفة تقع بطرف المنزل و قبالتها أربع غرف إحداهن يسكنها شاب أسمر فارع الطول يصطنع التهذيب تارة، ويتجهم في وجه من يشاء تارة أخرى، والأخرى تقطنها امرأة جاوزت عقدها الثالث تجتهد في إبراز مفاتنها، وإلى جانب عملها في الحقول تملك موهبة عجيبة في الإغراء، والتلاعب بالعقول، والغرفة الثالثة تقطنها امرأة مع زوجها وهي فضولية أشد ما يكون الفضول ، أما الغرفة الرابعة فتقطنها فتاتان قلما يظهرن، فهن دائمات الاشتغال في الحقول، وفي أوقات الفراغ يتبرجن ويسرن في الأرض..

لم يطل بنا المقام حتى تعرفنا إلى الجميع واندمجنا في محيطهم، كانت زهور من النساء اللواتي يؤلفن بين القلوب ويكسرن الحواجز، لعل مكوثها بالمنزل النهار والليل كلهما هو الذي يدفعها إلى مثل هذا الاجتهاد، علم أهل الدار أني أبحث عن عمل، فقد كانت

زهور على بعض الحسنات رغم علاتها الكثيرة، فلا شيء تسمع به أو تعلمه إلا أذاعته في الناس دون أدنى تفكير، دخلت علينا الغرفة ذات مساء لتخبرني أن نزهة وحنان وهما اللتان تقطنان في الغرفة المقابلة وجدتا لي عملا في الضيعة التي تشتغلان بها، وأكدت على أن أكون مستعدا في فجر الغد لأرافقهما، شكرتها وشكرتهن بالنيابة، قامت زهور زاهية منتشية بهذا المعروف الذي أسهمت فيه، نظرت إلى حليمة فإذا هي منقبضة :

هذا ليس وقت الغيرة يا حبيبتي، كما أن الأمر لا يعدو أن أرافقهن للعمل.

استيقظت مع آذان الفجر فتوضأت وصليت الفريضة، ثم رافقت نزهة وحنان إلى الخارج لنستقل الشاحنة التي تكدسنا فيها مثل أضاحي العيد، بدا لي كل شيء غريبا، ولم يكن استغراب العمال بأقل من استغرابي، إذ لم تكن هيأتي تدرجني ضمن مصافهم. بعد حوالي ساعة من الزمن بلغنا الضيعة فشرع الناس يقفزون ويتوجهون إلى أماكن بعينها، تهت ولم ينتشلني من هذا التيه إلا صوت حنان الذي به حشرجة وهي تقول:

تعال معي، سأعرفك على المراقب.

تبعتها بخنوع وقدمتني لمراقب العمال، وهو رجل يقارب الخمسين، بطنه منتفخة كأنه يحبل بتوأم، خشن الصوت، طلب مني بطاقة تعريفي الوطنية، ظل ينقل نظره بيني وبين البطاقة، لا ريب

أنه يتساءل بينه وبين نفسه عما أفعله هنا؟ إذ لم تكن هيأتي تشي بأني ممن يزاولون هذه الأشغال، ولا ممن يرتادون هذه الأماكن، طلب مني بلهجة آمرة أن أعمل رفقة حنان في "لاسير" رقم أربعة، رافقت حنان بخطى أقرب إلى الهرولة كأننا ضيعنا وقتا لا ينبغي له أن يضيع في تلك المحادثة، ولجنا البيت البلاستيكي من بابه الضيق، وباشرنا جني الطماطم بعدما علمتني حنان بعض التقنيات اليسيرة في الجني، وبعدما أوصتني بشدة أن أتفانى في العمل تفانيا شديدا إن أردت أن أحافظ على عملي لأني سأكون مراقبا للأيام الثلاثة الأولى ليتقرر مدى أهليتي لهذا العمل الشاق.

في البيوت البلاستيكية تعرف طعم المبيدات ويتغذى عليها جسمك ثم تألفها حواسك، وفيها يكون الصيف في أفظع حلله بحرارته التي تلفح الأجساد والأرواح معا.

لو تدرون أيها الناس من أين تأتيكم الطماطم التي تزينون بها أطباقكم؟ لو رأيتم الأيدي التي تغرسها وتتعهدها بالعناية حتى يحين موعد قطافها لعلمتم أنها تنمو بمعاناة البشر، وتسقى بدمائهم، لذا فلا عجب أن لونها أحمر حمرة الدم.. لن تعرفوا هذا ما لم تنصبوا في الحقول، وأتمنى ألا تلجوها فهي الجحيم بعينه.

ما زلت أتذكر ذلك الشاب النحيف وهو يمسك أنبوبا بلاستيكيا ينفث مبيدات سامة يهرول به في كل اتجاه برضى تام، شعره يقطر، وجسمه مبتل، فهنا لا يوفرون شيئا للحماية بل يغرونك بالساعات القليلة من العمل مقابل أن تستحم بهذه السموم، كم تألمت في قرارة نفسي على هذا الشاب، أردت أن أنبهه لخطورة هذا على صحته مقابل دراهم معدودات، لكني تعلمت أن ألزم الصمت وإلا طردت، فهذا أهم مبدأ يتعلمه الإنسان ها هنا، بعد بضعة أيام لاحظت غيابه وإن كان الجميع لم يأبه له ، ساورتني الشكوك ، فدفعني الفضول لأستفسر عنه أحد أصدقائه، كان جوابه أنه طريح الفراش، سألته وهل تردد على طبيب فأجاب بغير اهتمام :

- سيشفى مع الوقت

لا ريب أن الاختيار سيقع على عامل أخر يعوض الأول، وبعد أن يمرض سيتوسم في الوقت الشفاء كطريح الفراش. أناس ترحل معتلة الصحة، وأناس تجيء لتعتل دون أن تشعر، في هذه الحقول البئيسة الكل يعتل وينصب إلا شخصا واحدا فقط، يحافظ على صحته ولا يمسه اللغوب لأنه الحاكم والسيد، ورقاب العمال بين يديه، في وسعه أن يشرد من يشاء، وييسر لقمة العيش لمن يشاء، إنه إله الضيعة الذي استمد ألوهيته من عجز وخوف الكادحين، الكل يسر له الاحترام ويضمرون له الحقد والكراهية، جواسيسه ومتملقوه في كل مكان، إنهم كالجن قد يسمعون حتى الهمسات وما أكثر الهمس في هذه الضيعات البئيسة، فلا أحد يقدر على المجاهرة برأيه وإن كان حقا..

في مثل هذه الأماكن المرأة سلعة تشترى بأبخس الأثمان وكأنها في سوق النخاسة، لكن هذه السوق غير متاحة للجميع، بغياب "الشاف" تكون الأجواء مرة والعمل شاقا، وبحضوره تزداد مرارة و يبذل مجهود أكبر ، إنه الخوف، الخوف من الطرد الكل يعاني هذا المرض الخطير، ويحاول أن يظهر شجاعة زائفة تفضحها الرعشة والخنوع الذي يغشاهم بحضوره، إلا تلك العجوز التي نسميها "مي زهرة"، وهي امرآة في أرذل العمر شاحبة المحيا خطت التجاعيد آديمها، نحيفة الجسد، خشنة الكفين مضطربة الخطى، عابسة لا تعرف معنى للابتسامة، غليظة الطباع، تبدو للعيان مستهلكة لا تصلح لمثل هذه الأعمال، لكنها تحظى بمكانة خاصة تخول لها

أيسرها، وتحفظ لها حق الاستراحة المحظور على العامة متى رغبت. كان العمال الذكور يتآكلهم الفضول عن سر هذه المنزلة التي تحظى بها وتسري الشائعات بينهم، بين من يقول أنها من أقارب "الشاف" وقائل بأنه مشفق عليها لكبر سنها، وجازم بأنها تحظى بتوصية من مالك الضيعة، وبين مرتاب في كل المعاذير، أما العاملات فكن يتجاهلن التنقيب عن هذا السر مما زاد الوضع غموضا. .

وصاح المشككون في دواخلهم أنى يكون هذا والنساء أكثر خلق الله لوعة بكشف المستور ! لكن لا أحد يجرؤ على الاستقصاء مخافة أن يمسي عاطلا فالأجدر بالمرء في هذه المواضع أن يشاهد و يلزم الصمت ويتجنب السؤال .

لكن لله في خلقه شؤون فقد شاء أن لا يترك هؤلاء الناس في عذاب من حيرتهم، ويكشف لهم ذلك السر الذي أولوه كل تأويل، فجاء اليوم الموعود لترتاح فيه الخواطر المرتابة. حل فوج جديد من العاملات في الضيعة فوزعت المهام عليهن، حجزت "مي زهرة" مكانا بينهن وسرعان ما تجاذبت أطراف الحديث مع عاملة جديدة بصوت منخفض فلم تعرها اهتماما وتجاهلتها، لكنها أصرت على المواصلة وما أخطر إصرار مثل هذه العجائز، لكن أناة هذه العاملة لم تكن لتتحمل هذا الإصرار الماكر، فصاحت فجأة بصوت تردد صداه حتى تجمد الجميع وحملقوا باندهاش.

ألم يعد ممكنا الحصول على عمل دون إقامة علاقة مع الرؤساء!

حينها فهم الجميع سر "مي زهرة" وانكشف لهم ما كانوا فيه من حيرة وعذاب..

لكن الأسرار هنا لا تنتهي وسيظلون دوما يطرحون الأسئلة وتعذبهم الشكوك.

بدأ صدري يضيق مع مرور الأيام كأني أصعد في السماء، تضايقت بهذا الاستعباد وشجعني على التمرد ما بقي معي من صور النضال في الجامعة فعقدت العزم على أن أتكلم وأشحن همم تلك الأجساد التي لا تعرف غير الطاعة .. و مع أول كلمة تمرد نالني طرد مهين في ظل صمت مطبق، وأقسمت أن لا تطأ قدمي هذه الحقول مجددا بعد أن لعنت نفسي ولعنت هذا الواقع وهؤلاء الذين استطابوا العبودية..

هنا تتعلم لعن الأشياء في خيالك فقط .

انقطع جمال عن ذلك العالم البشع الذي شعر أنه أفقده كثيرا من إنسانيته، وشرع يتردد على المسجد ليصلي الفرائض، وكثيرا ما كان يمكث بعد قضاء الصلاة، يسبح أو يقرأ القرآن أو يصلي النوافل. وكان هذا السلوك ليسترعي انتباه الإمام الذي دفعه الفضول ليستقصي أمر الرجل. وذات يوم بعدما انصرف جميع المصلين ولم يبق غيرهما في المسجد، شعر بالإمام يرمقه بنظرات الحيرة، قام وتوجه إليه عند المحراب، ألقى التحية ورد عليه الإمام بأجمل منها، ولم يسمح للصمت أن يعيق تواصلهما، فابتدر الإمام قائلا:

ـ إني أرجو أن تعيرني بعض الكتب، وليس لدي أدنى شك أنك قارئ كبير فإني كما تعلم حضرت بعض دروسك المسائية وبعض خطبك التي تشي باطلاعك الواسع.

رد عليه الإمام بابتسامة عريضة:

ـ بارك الله فيك، وما أوتينا من العلم إلا قليلا، أي الكتب تهواها نفسك فإني مزودك بها إن توفرت إن شاء الله تعالى.

عرف أن مجاملته هذه فتحت مصراعي فؤاد الإمام فرد عليه قائلا:

ـ أكون شاكرا لك لو أمددتني بتفسير ابن كثير، وكتاب عن الفرق الكلامية إن توفر؟

لقد كان سؤاله عن كتاب حول الفرق الكلامية بداية نشأة صداقة متينة بينهما، لأنهما تناقشا حول هذه الفرق لساعات دون أن ينتبها

لانقضائها، وعلم جمال أن الإمام يعد بحث الإجازة حول هذه الفرق خاصة المعتزلة منها والأشاعرة، افترقا على عجل لأن الوقت كان قد تأخر، ونسي الإمام أن يسأله عن عمله وتساءل بينه وبين نفسه، "كيف فاته أن يسأله عن مهنته ؟ فلا ريب أنه وافد جديد، لأن تردده على المسجد مستجد، أنهى حديثه النفسي بأمل سؤاله عند صلاة الفجر أو في الغد.

عاد متأبطا بضعة كتب، أدار المفتاح بهدوء ودلف للغرفة، وجد حليمة مستلقية منشغلة بهاتفها، وضع الكتب في الركن بعناية فما أكثر ما يقدس المؤلفات واستلقى بجانبها، سألته بامتعاض:

ـ أين تأخرت؟ عوض أن تبحث عن عمل تأتي بالكتب؟ ألا تدري أننا على وشك أن ننفق آخر ما نملك من دراهم؟

ارتمى في حضنها، وحدثها عن رجل لقيه في المسجد، ووعده أن يدبر له عملا في مكتبة قريبة وبأجر مناسب، بدت سعيدة بهذا الخبر فاحتضنته بقوة وهي تداعب شعره، وكم كان يحلو له أن يستشعر منها مثل هذا العطف، ولربما حاجته إليه هو الذي يدفعه أحيانا إلى اختلاق مثل هذه القصص التي لا تخلو من بعض الأمل. وقبل أن يؤذن آذان الفجر كان قد اتجه صوب المسجد ليؤدي الفريضة التي صار يحرص على تأديتها هذه الأيام في مواقيتها، صلى مع الجماعة وتأخر كعادته في الحمد والتسبيح، ما إن قام حتى باغته الإمام بإلقاء التحية، تحدثا قليلا ثم دعاه الإمام ليشاركه الفطور، حاول الاعتراض فما وجد إلى ذلك سبيلا، لأن الإمام أصر وطمأنه أنه لا ازعاج في

الأمر، فهو بعد ساعة سيذهب إلى كلية الشريعة بآيت ملول. رافقه إلى مقهى قريب أكثر مرتاديه عمال على عجلة من أمرهم... طلبا قدحين من الشاي وخبزا، فابتدره الإمام كأنه نسي شيئا:

ـ أرجو أني لا أؤخرك عن عملك.

كان صادقا في قوله وآملا في الآن نفسه أن يحصل على جواب يكشف له لغز هذا الرجل. رد عليه مبتسما:

ـ لقد وفدت إلى هنا منذ أيام فقط، ولم أوفق بعد في الحصول على عمل.

ازداد ذهول الإمام واستغرابه، فقال:

ـ إنك مثقف ما شاء الله، فأي عمل قد يبحث عنه مثلك في هذا المكان الذي لا عمل فيه سوى في الضيعات والحقول؟ .

سكت للحظات وقال بثبات كبير لم يعرف مصدره:

ـ أنا فقيه يا سيدي، وقد كنت قبل مجيئي إلى هنا أصلي بالناس في أحد مساجد بني ملال، وأنت تعلم يا سيدي أن الفقيه هذه الأيام قد يؤم الناس صباحا ويمسي عاطلا إن أساء القوم فهمه، متناسين كل ما أمضى بينهم من أيام، وما شاركهم من أفراح وأتراح، تخيل أنهم إنما أنكروا علي قول الحق فقط، فقد صادف أن قلت في خطبة ألقيتها فيهم يوما أن الحج بالمال الذي يرسله المهاجرون بأروبا لذويهم غير جائز إن علموا وأيقنوا أن مصدره حرام، ولما كان السواد الأعظم من أهل تلك المنطقة يحجون بأموال أبنائهم الذين يتاجر معظمهم في

الخارج بالمخدرات، فقد آلمهم قولي واستنكروه وأجمعوا كلمتهم على نفيي من ديارهم، ولما علم البعض الآخر ممن استحسن ما أفتيت به، أصروا على بقائي، فانقسم الناس وكثر القيل والقال، فوجدتني مضطرا أن أغادر رفقة زوجتي في صمت، متواريا عن الأنظار حتى لا يزداد الخلاف بين الناس وتتصدع كلمتهم، وبعد أيام من البحث عن مسجد آخر خاب مسعاي، فرأيت أن أسير في الأرض كما يدعو إلى ذلك رب العزة، وهآنذا معك هنا أرتشف الشاي..

ربت الإمام على كتفه يواسيه، لعله أحس أن هذا قدر يجمع بين كل الفقهاء، فهم تحت رحمة كبار الملاء الذين يحبون أن يسمعوا من الفقيه ما يرضيهم فقط ولا يشعرهم بالذنب. قام حضرة الإمام مستأذنا بالانصراف بعد أن أصر على دفع ثمن الشاي، وقبل أن يبتعد، استدار نحوه وقال:

ـ أراك في صلاة العصر فلن أعود قبل ذلك.

قام جمال لينصرف وهو يتساءل، ما هذا الذي قلته ! متى كنت فقيها؟ ما الذي يحدث معي؟ هل بدأت أصاب بالجنون؟ ربما يكون الأمر كذلك. إن كل ما يحدث معي ليس إلا ضربا من الجنون ! أليس مرافقة امرأة لا أعرفها حق المعرفة إلى بلد لا أعرفه ضربا من الجنون؟

ظلت هذه التساؤلات تعصف به ولم ينتشل نفسه منها إلا وهو يدير المفتاح في الباب، دلف إلى الغرفة البسيطة التي ليس فيها

من الأثاث شيء ذا بال، إنها خالية، لا شيء فيها يلفت الانتباه، فلو جردتها من فراشهما وقنينة غاز وأواني يتيمة، لبدت لك الغرفة مهجورة. ألفى حليمة ما تزال نائمة، استلقى بجانبها يتأملها. إن تأمل امرأة نائمة يحبها يبعث في قلبه لونا من السرور، شعرت به إلى جانبها فطوقته بذراعيها وضمته كما تضم الأم صغيرها.

انسل من بين ذراعيها بمهارة دون أن يوقظها، وطفق يهيئ لها الفطور بهدوء كبير حتى لا يوقظها قبل أن يجهز. سمع طرقا على الباب، فمد يده ليفتحه، لم يكن يفصل قنينة الغاز عن الباب سوى ذراع. ما إن أزاح المزلاج الصغير حتى دلفت زهور دون أن تنتظر أن يؤذن لها بالدخول، ألقت عليه التحية وأطالت في الإمساك بيده. إن مثل هذه التصرفات تربكه، سحب كفه من كفها اتقاء الشر والفتن، فلم تهتم زهور ببردة فعله بل اتجهت عند حليمة، وقفزت عليها توقظها بكثير من اللوم والعتاب قائلة:

ـ يا نؤوم الضحى، قومي من نومك سامحك الله، كيف تستغرقين في النوم وجمال يعد لك الفطور، هذا لا يجوز ! نظرت إليها بعينين عسليتين تخشيان أن يهرب منهما النعاس، مبتسمة ابتسامة تشبه الصباح، فقامت مستوية بمهل كأنما تخشى أن تنكسر عظامها. حيت زهور بعناق حار وقامت لتغسل وجهها، وكان جمال حينذاك قد أعد الشاي وجهز ما يلزم إن صح أنه جهز شيئا، فقد صب أقداح الشاي وطفقوا يرتشفون رشفات صامتة. كسرت زهور الصمت الذي يخيم على المكان بقولها:

ـ ما الأخبار يا جمال؟ ألم تجد عملا بعد؟ إن لم تجد سأحدث زوجي بالأمر سيجد لك عملا إن شئت.

نظر إليها نظرة شزراء مجيبا على سؤالها:

ـ لا أريد العمل بأي ضيعة، وحصولي على عمل أو عدم الحصول عليه شيء لا يعنيك، اهتمي بشؤونك الخاصة أفضل لك.

وضعت القدح من يدها وانصرفت مذهولة أشد الذهول. هل كان جمال هو من تلفظ بهذا الكلام؟ تمتمت بأشياء أخرى لا يعلمها إلا خالقها، وضع جمال قدح الشاي أرضا واستند إلى الحائط مقطب الجبين وعيناه تشتعلان غضبا. نظرت إليه حليمة بخوف ورهبة وكثير من الحب، فهي لم تره على هذه الحال من قبل، انطلقت نحوه كالسهم وطوقته بذراعها مجهشة ببكاء صامت، بكاء صامت لا تفضحه غير الدموع المنهمرة على وجنتيها. كان يملك القدرة على أن يبكيها ويضحكها أنى شاء، لكنه حرص على أن تكون سعيدة دائما. لأنها أنفقت حياتها كلها تستدر العبرات. تمردت عليها عواطفها فجاءت كلماتها متقطعة يتخللها شيء من النحيب، وهي تسأل:

ـ ما بك يا عزيزي؟ ما الذي يغضبك؟ هل أنا السبب؟...

عاد إليه هدوؤه، وأحس بالمرارة لأنه أخلف بأحد وعوده دون أن يقصد إلى ذلك قصدا، فقد وعدها ذات مرة أنه سيحرص ألا تذرف دمعة واحدة. ضمها إليه بقوة يطمئنها أنه على ما يرام. ظلت

تتوسله أن يحدثها بخبايا نفسه ودواعي غضبه المفاجئ، قبل بين عينيها وقال:

ـ لا أدري يا عزيزتي؟ أقسم أني لا أدري !

ردت عليه ورأسها على صدره:

ـ فقط طمئني أنك بخير؟

ـ أتعلمين يا حليمة أني أصير إنسانا آخر لا أعرف عنه شيئا، أتصدقين أني أخبرت إمام المسجد هذا الصباح أني فقيه يؤم الناس وأني جئت هنا بحثا عن مسجد أعمره؟

ـ ماذا تقول؟ أنت فقيه؟ ولم قلت هذا؟ أي شيء يدفعك لهذا الادعاء؟

ـ قلت لك لا أدري.. سأخرج الآن لأستنشق بعض الهواء.

ـ سأرافقك، إنك تخيفني، أخشى أن تؤذي نفسك.

ـ سأخرج وحدي أحتاج بعض الوقت ليصفو ذهني.

انطلق إلى الخارج والتقى زهورا بالباب، نظرت إليه نظرة لوم وعتاب. اعتذر إليها بنظرات منكسرة دون أن ينبس ببنت شفة. خرج من الزقاق الضيق وطفق يسير في الطرقات دون وجهة محددة، مطرقا رأسه إلى الأرض.

أي أمكنة مر بها؟ بأي شيء كان يفكر...؟ تلك أشياء لم يعرها أي اهتمام، عاد متعبا قبل آذان الظهر بلحظات فألفى حليمة قاعدة تتصفح هاتفها وعيناها غشيتهما الحمرة وانتفختا انتفاخا يشي بكثرة

البكاء. قامت إليه وعانقته بقوة لم يعهدها في عناقاتها اللطيفة، وأجهشت مرة أخرى بالبكاء فضمها إليه وقبلها قبلة حاول أن يضمنها كل مشاعر الندم..، أخذ يسترضيها حتى رضيت، فانتصر في استرضائها وخسر صلاته مع الجماعة، قام فتوضأ وصلى، وقامت حليمة لتعد وجبة غذاء يسدان بها رمقهما. تناولا وجبتهما المكونة من البيض وحبات من الطماطم، وطلب منها أن تغير ملابسها ليخرجا معا لتمضية الوقت ولنسيان أحداث هذا الصباح، انحنت عليه وقبلته قبلة أودعتها كل ما في قلبها من حب وأشواق معتقة لرجل يفكر في راحتها بهذا الشكل.

إن تصرفاته اللطيفة معها تجعلها تحبه وتكن له مزيدا من الحب كل يوم، بل كل دقيقة وثانية. ارتدت ملابسها وبالغت في زينتها كما عهدت ذلك، وخرجا معا. فوجدا زهورا تنشر الغسيل في فناء المنزل، فابتدرتهما متسائلة:

ـ إلى أين هذه المرة؟

ردت عليها حليمة والسعادة ترتسم على محياها:

ـ لقد طلب مني جمال أن نخرج في نزهة، لعلها تدفع عنا كرب هذا الصباح.

تشبثت بذراعه كأنها تخشى أن يفلت منها، حاول ألا يقطع حديث المرأتين احتراما لسؤال زهور حتى لا يسبب لها أي إحراج مجددا.

شيعتهم زهور إلى الباب بابتسامة باطنها ألم وحسرة على واقعها الذي لم يطرق الحب أبوابه ولا ذاق طعم الرومانسية يوما. فهي لا تتذكر أن زوجها طلب منها يوما أن يخرجا في نزهة، أو جهر بحبه لها علانية أمام أحد كما يفعل هذا الرجل الغريب الأطوار الذي يكدس كتبا في زاوية غرفته. كم تمنت أن تحصل على رجل كهذا في حياتها، رجل يعانقها ويقبلها في الأوقات التي لا يتأهب فيها لممارسة الجنس. إن ما تحكيه لها حليمة عنه جعلها تتمنى رجلا في حياتها مثله، بل إنها أحيانا تمنت لو تستبدل زوجها به هو. انتهت من نشر الغسيل ودفعت باب الغرفة المجاور لغرفتها، لتلفي نزهة وحنان ما زالتا مستلقيتان في فراشهما، رفعت عنهما الغطاء وهي تعاتبهما أشد العتاب قائلة:

ـ لقد تجاوز الوقت الظهر وأنتن لم تتحركن من فراشيكما بعد.. انهضتا أيتها الكسولتين.

ردت عليها نزهة بصوت متعب:

ـ متعبات نحن يا زهور، إن يوم الخميس هو اليوم الوحيد الذي نحصل فيه على إجازة أسبوعية، خير ما يفعله الإنسان فيه هو أن يمضيه مضطجعا. فمع حلول صباح الغد سنمضي طيلة أيام الأسبوع واقفات من أول النهار حتى آخره، إني أفضل أن أبقى مستلقية إلى ما بعد العصر، فهكذا أحس فعلا أني في إجازة، ثم أطلقت ضحكة تكاد تخلو من معنى إلا من بعض التهكم.

نظرت إلى حنان تستفسرها بعينيها هل توافقها الرأي أم لا؟ أرادت زهور أن تغيظهما فقالت:

ـ قوما من مكانيكما، فإن الذين يمضون أوقاتا جميلة بالفعل قد انطلقوا يتنزهون ويمرحون في الأرض. اسمعن : إني أعجب كيف يعيشان بهذا الهدوء والتفاهم، لو تريانهما وهما يخرجان منذ قليل في نزهة. كانت حليمة تمسك بذراعه وأحيانا تسند رأسها إلى كتفه كأنها تخشى أن يفر منها. قهقهت نزهة بشكل مبتذل:

ـ الأحرى بها أن تخشى فراره، فهي أقرب إلى سن والدته ولا أستبعد أن تستهويه صبية ذات طرف كحيل فيلجأ إلى استبدالها عندما يسكره الافتتان بالجسد الغض، فإني أرى أنه يضعف أمام المرأة ضعفا شديدا، أما رأيتن كيف يتحدث معنا نحن أيضا؟

قالت حنان:

ـ إنه مسحور لا ريب في ذلك، إن فيه علامات السحر. هل يعقل أن يبقى رجل مثله معها؟ أرى أن نسألها أي سحر سحرته به لعلها تكشف لنا سر وصفتها. وختمت حديثها بابتسامة خبيثة. بدت كل من زهور ونزهة توافقان حنان في رأيها حول السحر بشكل ضمني دون أن تصرحا بذلك.

بعد برهة من الصمت أضافت حنان وهي تلمس في نفسها رغبة في التعبير عما يجيش به صدرها، لقد حرك فيها هذا الحديث ما تحاول جاهدة أن تبقيه راكدا:

ـ هبن يا فتيات أن حليمة سحرته فهل السحر يؤتي كل تلك البراعة في الكلام؟ وهل السحر يصير الرجل بكل ذلك الاحترام وذلك الوقار الذي يحيط به امرأته أم أنه يصنع منه عبدا؟ انظرن لحالي مثلا، ألم أجرب كل أنواع السحر مع عزيز؟ ألم أطعمه كل ما أفتى به علي السحرة الذين دفعت لهم نصف ما أحصله من دراهم في اليوم؟ لكن ما الذي تغير؟ لا شيء! قد يبدو أنه صار أكثر خضوعا، لكن لا شيء تغير في مشاعره أو في شخصه. ما يزال الإنسان نفسه الذي عرفته، لا يعترف بي إلا كجسد ولا يرى في إلا إشباعا لرغباته. أنت قلت يا زهور أنك دخلت غير ما مرة بغتة على حليمة وكثيرا ما تجدينها بين ذراعي جمال وهو يداعب وجهها، بل لعلك نسيت أنك قلت إنك وجدته يوما يمشط لها شعرها! هل منا نحن البئيسات اللواتي رزقن برجال بؤساء من يعاملها حبيبها أو زوجها بذلك الشكل؟ هل منا من ساعدها رجلها في غسيل الملابس أو منعها من العمل رأفة بأنوثتها؟ لا، بل إننا لم نرزق بمثل هذا الرجل! وما أظننا سنرزق به !

سمعت زهور باب غرفتها يفتح فقامت مسرعة لتستقبل زوجها الذي عاد من السوق، لترى أي الأشياء ابتاعها هذه المرة.

أما نزهة وحنان فظلتا واجمتين تتأملان حياتيهما، فجأة رن هاتف حنان، مدت يدها إليه، وقالت لنزهة:

ـ إنه عزيز، سيطلب مني كالعادة أن أذهب عنده ليقضي مني وطره ويودعني وعوده التي تأبى أن تتحقق.

ضغطت على زر الاستقبال، وجاءها صوته جافا لا حياة فيها:

ـ إني أنتظرك لا تتأخري.

ردت عليه بصوت يشي بالسأم من مثل هذه الاتصالات التي تتكرر على الوثيرة نفسها:

ـ إني قادمة.

قطعت الاتصال وقامت تغير ملابسها لتعيد السيرة نفسها التي تتكرر في كل يوم عطلتها. نظرت إلى نزهة وقالت بصوت غاضب:

ـ مللت هذا التكرار، إني أشعر كأني اجتزت يوم الحساب وحشرت في جهنم.

نظرت إليها حنان نظرة تنم على تشجيع في غد أفضل.

جلسا في حديقة متواضعة لا يؤمها إلا بعض الناس الذين لم يقعدهم فيها غير التعب في أحسن الأحوال. كان هو يتأمل الناس، وهذه عادة متأصلة لديه منذ أن كان يحضر بعض المحاضرات في علم الاجتماع بالجامعة. وكان عقلها هي تتصارع فيه الكثير من الأفكار، إنها مستعدة أن تقايض بعض سنين حياتها مقابل معرفة فيما يفكر هذا الرجل الذي قلب حياتها سافلها على عاليها، أي سحر يلقيه عليها، حتى تصير عبدة له عن طواعية هكذا! لما يعذبها غموضه وعجزها عن توقع تصرفاته! لعل هذا الغموض الذي لم تعهده في الرجال من بين ما يقيدها به. فهي تتذكر أول ليلة قضاياها معا، توقعت أن يهم بها منذ أول لحظة استلقيا فيها على الفراش،

لكنه لم يقربها ولا اشتعلت عيناه بنار الشهوة التي تتوقد في أعين الرجال كلما اختلوا بامرأة جميلة، بل إن بروده هذا جعلها تشك في كل الجمال الذي تؤمن بأنها تتمتع به، تساءلت كيف أتيح له أن يغفو هكذا بجانبها دون تؤرق الرغبة مضجعه، عللت بروده بنصب السفر، لكنه تعليل ما فتئ أن انهارت قواعده في الليلة الثانية عندما جابهها بنفس البرود، وأعرض عن وصلها إعراض النساك والزهاد في ملذات الحياة، عدمت الصبر، وفي الليلة الثالثة قررت أن تضع حدا لكل عذاباتها، فسألته عن سر هذا البرود اتجاهها، نظر إليها نظرة متفهمة ونظرة العالم بما يجيش به صدرها، فحدثها حديثا مطولا على أنه لا يستطيع أن يقربها خشية الوقوع في المحظور، وأنه يفكر في حل يسبغ على علاقتهما صفة الشرعية، ولا يدري أي الطرق يستمدان منها هذه الشرعية التي تتيح لهما الوصال، أي رجل هذا الذي يستلقي بجانبها؟ شيء ما فيه يذكرها برضى الذي عاملها بالتعفف نفسه ذات يوم.. أرادت أن ترحم نفسيهما من كل هذا العذاب فأشارت إليه أن يتزوجا زواجا عرفيا، بدا مذهولا من اقتراحها، شعر بشيء يشبه الغباء، كأنه لم يسمع بهذا الضرب من الزواج من قبل، قام فرسم قبلة سريعة بين عينيها،

- وقال: غدا نتزوج ونشهد على زواجنا أهل هذه الدار.

أبهرها كل هذا الحماس الذي طفح منه، ففتحت ذراعيها

- وقالت: الآن عانقني يا جمال،

لكنه أبى أن يضمها إليه بكل لطف وأدب،

- أمامنا بدءا من الغد ليال طويلة من العناق والحب..

في مساء اليوم التالي أولما وليمة متواضعة لأهل الدار وشهدوا زواجهما، وما إن انصرف الشهود حتى انطلقا في الحب بجنون..

فرغت من استذكار هذه الأحداث التي ماتزال تعجب منها إلى غاية اليوم، نظرت إلى جمال فإذا به غارق في تأملاته، فقاطعت تأمله قائلة:

- جمال

بعد برهة التفت إليها كأنه استيقظ لتوه من حلم، نعم

- ألا تراني جميلة ؟
- بل إنك في غاية الروعة والحسن وإن كان :

البدر يكمل كل شهر مرة   فهلال وجهك كل يوم كامل

- إذن كيف أعرضت عني في تلك الأيام الأولى من وصولنا ؟

عرف أنها لم تنس هذا الإعراض الذي ترك فيها ما يشبه الجرح الغائر، لأنه إعراض وقف صرحا أمام جمالها الأخاذ..

- سأخبرك بسر يا عزيزتي

انتبهت إلى ما سيقوله بكل حواسها، فما أكثر ما تحب أن تسمع الأحاديث التي يبدأها بعبارة : سأخبرك بسر.

- إني لم أتعلم معنى الصبر في حياتي كلها مثلما تعلمته تلك الليلتين، كدت عشرات المرات في الليلة الواحدة أن أدوس على مبادئي وأرتمي في حضنك وأخذك كلك، كما لم أخذ امرأة من قبل، لكن بشكل عجيب استطعت الصمود والنجاة.

راقها اعترافه وأعاد إليها بعض الثقة بجمالها. واستيقظت الغريزة الأمومية بداخلها فقالت له:

- فلننجب يا جمال؟

نظر إليها مبتسما:

- لقد أنجبنا ؟
- ومتى هذا! أأكون قد حملت وولدت دون أن يكون لي علم بذلك؟
- لقد ولدت الكثير من الأحاسيس منذ أول قبلة حدثت بيننا، والأحاسيس الصادقة عندي أثمن من آدمي يسير على الأرض ويتعذب كما نتعذب، يمكن أن نحول كل الحب الذي نوفره لأبنائنا المنتظرين إلى أحاسيسنا، فنتلطف بها ونتعدها بالرعاية والعطف في ثنايا قلوبنا دون أن تصطدم بهذا العالم القاسي، رحم الله أبا العلاء.
- دعنا من ألاعيبك ومن هذه الفلسفة، فأنت تعلم أن حظي من التعليم يكاد يكون ضعيفا ولا يتجاوز القراءة والكتابة المتواضعتين. والمعري هذا الذي تترحم عليه كل مرة إن لم

يكن قد جنى على أحد كما تقول فإنه قد جنى على نفسه، ألم يمت وحيدا دون أبناء يشيعونه إلى مثواه الأخير ؟

مرر كفه على وجهها وكم كان يحلو له أن يداعب أديمها وقال:

- وهل كان الأبناء ليعيدوه من هذا المثوى؟ أو كان تشييعهم إياه يدخله الجنة أو النار؟
- أنت مجنون، أتعرف ذلك.
- إن المجنون هو الذي فقد كل شيء إلا عقله يا حبيبتي، سبق لنتيشه أن قال شيئا مثل هذا.
- جمال! قلت لك لا تحدثني عن هؤلاء المفكرين، تعرف أني لا أفقه من قولهم شيئا، إني لا أعرفك إلا أنت، وفيك كفاية حاجتي.

نظر إليها نظرة كلها محبة وعطف، فهكذا كانت هي تفسر هذه النظرة، ثم عاد لتأمله وشروده المعهود، ولم ينتشله من شروده إلا سماعه شيئا يشبه النحيب، استدار إليها وألفاها تبكي، أحاطها بذراعه وسألها عما يبكيها بكل لطف فهو يقدر جود عينيها، ويدري أن أيسر الأشياء تبكيها وأبسطها أيضا تدخل السعادة على قلبها.

ردت عليه:

- اشتقت لابنتي، إني وأنا معك تغمرني بحبك أصير أكثر اشتياقا لها..

- كفكفي دمعك يا عزيزتي، سيكون كل شيء على ما يرام، ستجتمعين بابنتك، فغدا في ظهر الغيب ومن يدري ماذا تحمل لنا الأيام.
- جمال، إني أخاف أن يولد بداخلي شوق أكبر من شوقي لابنتي، فتجتمع علي الأشواق وتكون نهايتي.

التقى جمال بإمام المسجد، وعرض عليه الإمام أن يلقي على الناس درس المساء، فطن جمال أن الإمام يمتحنه، فأبدى موافقته، أنجز جمال درسا مؤثرا بلغة فصيحة تطرب لها الأسماع، كان يملك قدرة عجيبة على الارتجال والمناقشة، عامل المستمعين كالتلاميذ بإشراكهم في الموعظة، ولم يكتف بالإلقاء الأحادي الجانب، كان درسا استعان فيه بالديداكتيك إن صح التعبير.. عبر الإمام لجمال عن إعجابه بالدرس، وسأله إن كان يود أن يشتغل في مسجد بمنطقة "سيدي بيبي" ، سعد جمال لسماع هذا الخبر، وأعلن موافقته، فقال الإمام:

- غدا نذهب معا إلى هناك لنلتقي بالقائمين على شؤون المسجد، وتبرموا الاتفاق إن راقك الأمر..
- إن شاء الله تعالى.

حزما أمتعتهما الصغيرة وانتصبا واقفين وسط الغرفة، فأشار لها أن ترتدي لباسها الجديد، بدا كأنها نسيت أنها منذ اليوم ستصير امرأة أخرى بلباس جديد لم يسبق لها أن جربته ولو على سبيل التسلية، ظهر عليها بعض التردد فقالت :

- هذا صعب؟
- صعب! الصعب هو أن يتوقف إنسان عن فهمك وهو الذي توسمت فيه كل الخير وسماحة النفس.. والأدهى من ذلك أن تكون أنت ممن يقدر الظروف ويغض الطرف.. إن الإنسان الذي لا يلتمس الأعذار لأخيه الإنسان يا عزيزتي ينبغي له أن يراجع نفسه، ويتصالح مع ذاته ومع الأخرين.. لأنه كثيرا ما يحدث أن تتعطل عجلة الفهم بين الطرفين عندما يكسر أحدهما سنا من أسنانها. لم تفهم من كلامه الكثير لكنها لم تناقشه فيه وقامت ترتدي عباءتها وبرقعها.

أحب جمال أن يغادرا دون توديع أحد ففي نفسه ما يشبه العقدة من كل ما يتعلق بالوداع.. لكن حليمة أصرت، ولم يجد بدا من الرضوخ لإصرارها خاصة أنها أطاعته في ارتداء البرقع، لذلك جعلوا وقت مغادرتهما هو الوقت الذي يحضر فيه الجميع، لكنه أخذ منها موثقا ألا تخبر أحدا بوجهتهما. أخرجا أمتعتهما للفناء، وطرقت حليمة الأبواب تودع القاطنين على عجلة من أمرها مما لم يترك لهم وقتا للاستفسار عن هذا الرحيل المفاجئ، ولا عن هذه الهيئة الجديدة، حياهم هو أيضا بكل حرارة، فقد شعر في لحظة ما أن صلة ما ربطته بهؤلاء

الناس اللذين عاشرهم لما يزيد عن ثلاثة أشهر، حملا أمتعتهما وشيعتهم نظرات محملة بألف سؤال، فلا أحد من هؤلاء الجيران استطاع أن يسبر أغوارهما، ولا أحد منهم يملك تبريرا لهيئة حليمة الجديدة ولا لهذا الرحيل المفاجئ، كانت زهور أكثر هؤلاء استغرابا فالبارحة فقط تناولت معهما العشاء ولم يأتيا على ذكر الرحيل، ولا كانت حليمة ترتدي مثل هذا اللباس.. لقد فتح رحيلهما باب التأويل على مصراعيه..

وجدا وسيلة النقل تنتظر بالباب واستقلاها نحو المنزل الجديد. بلغا وجهتهما وترجلا من العربة وأنزلا أمتعتهما، شعرت حليمة أنها محتجزة داخل كهف مظلم، ظلت جامدة لا تتحرك، توجه جمال بخفة إلى الباب الذي أمامه فأدار المفتاح متبسملا ثم عاد ليحمل الأمتعة، ألفى حليمة لم تبارح مكانها، فقال لها بشيء من الحدة، هل أنت متاع أيضا لأحملك؟ تحركي وساعديني؟ أو على الأقل أدخلي منزلك الجديد آمنة بدل أن تبقي هدفا لتلك الأعين الفضولية التي تطل من الشبابيك، انتشلها كلامه من جمودها وتقدمت تدخل منزلها الجديد وهي لا تدري أي شيء يخبئه لها القدر..

منزل متواضع يتكون من غرفتين متوسطتا الحجم وفناء ليس بالكبير ولا الصغير أما المطبخ فلا يحتاج إلا ترسانة من الأواني ليمسي في أحسن حال، وفي الركن مرحاض مساحته على قدر كبير من الاتساع، الجدران مطلية بصباغة بيضاء وضعت بإتقان كبير شأنها شأن البناء، فكل شيء يشي بالإتقان في الصنع وذلك لأن

العمال يتقنون أعمالهم في أماكن العبادة، ويتفانون في العمل مخافة غضب الله وطمعا في بعض الأجر..

رتبا أغراضهما القليلة واستلقيا على الفراش يستريحان، ولم يمض الكثير من الوقت على استلقائهما حتى سمع آذان صلاة المغرب يرتفع عاليا، قام جمال فتوضأ ولبس جلبابه الأبيض ودلف إلى المسجد، وجد الناس قعودا ينتظرون مجيئه، ألقى عليهم تحية الإسلام، وتوجه صوب المحراب وقام الناس ليصطفوا بأسرع ما يكون، ثم تناول مكبر الصوت وناوله للذي أمامه ليقيم الصلاة، وعندما استدار ناحية القبلة تملكه إحساس غريب، لعله خشي أن يرتكب خطأ، فهو لأول مرة سيؤم مثل هذه الكثرة من المصلين، ولم يتنفس الصعداء إلا بعد أن سلم واستدار نحو المصلين يتمتم بالباقيات الصالحات. توجه إليه المصلون يلقون عليه السلام باحترام كبير مرحبين به هاشين في وجهه، فقد تركت فيهم قراءته الرخيمة للقرآن أثرا عظيما، وكان يرد تحياتهم بأحسن منها. انصرف جل المصلين ولم يتبق منهم غير المكلفين بالمسجد، الذين انفردوا به مرحبين وخائضين في شتى النقاشات الدينية والدنيوية، وقبل أن يفارقهم أقدم أحد الجماعة على دعوة الجميع للعشاء على شرف الفقيه الجديد، فقال جمال والابتسامة تعلوا محياه:

- بارك الله فيك سيدي الكريم، نصلي العشاء ونلتحق بإذن الله.

فارقهم وتوجه إلى البيت، وجد حليمة مستلقية تعبث في هاتفها. وما إن رمقته حتى قامت من مكانها كأن بها فزعا وهي تسأله كيف

أبلى في إمامته الأولى؟ نظر إليها نظرة حب وعطف، فهو أعلم الناس بأنها تخاف عليه أكثر مما تخاف على نفسها:

- كل شيء مر بسلام، لوهلة شككت أني كنت فقيها منذ زمن بالفعل ولست مدعيا فقط.

ابتسم حتى ظهرت نواجده، واستلقى بجانبها ثم قال:

- سأغيب بعد العشاء يا عزيزتي لبعض الوقت.
- ولم؟
- أحد الجماعة دعانا لوليمة عنده.
- سأبقى وحدي إذن؟
- سأعود بأسرع ما يمكن، ما إن ننهي وجبة العشاء.

أم الناس في صلاة العشاء، وانطلق مع الجماعة الصغيرة المدعوة، وأثناء الطريق طوقته الجماعة بأسئلة لم يكن قد وضعها في الحسبان، سألوه من أي بلاد هو؟ وهل له أولاد؟ وحتى أن أحدهم سأله متى تزوج؟ لكنه بحذق كبير استطاع أن يرد على كل أسئلتهم دون أن يأثم، أخبرهم أنه من بني ملال، وأنه تزوج حديثا وأن الله لم يرزقه ذرية بعد، وما إن بلغوا باب منزل المضيف حتى دلف اثنان منهم، وتبعهم يتخطى العتبة متبسملا، وفعل الثلاثة خلفه مثلما فعل، بسملوا قبل الدخول.

تقدمهم صاحب المنزل وهو يعيد كلمات الترحيب مرة تلو الأخرى. لم يطل بهم الجلوس حتى كانوا يرتشفون كؤوس الشاي،

وبعد أن فرغوا منها قرأ جمال ما تيسر من القرآن بصوت عذب استحسنته أسماع الجالسين، وطربت له نفوسهم. وبعد الخوض في نقاشات متشعبة شعر فيها جمال أنها أقرب إلى الامتحان. وضعت أطباق العشاء أمامهم، أطباق جهد أصحابها في جعلها تشي بالجود والكرم... تناولوا عشاءهم، وأوصى صاحب الدار بأن يعد الشاي ليعينهم على السمر، لكن جمال اعتذر بلباقة محتجا ببعض الأعذار منها أن بعض الأشياء تحتاج إلى ترتيب، وهو في الحقيقة كان يخشى التأخر عن حليمة، فليس من السهل أن تتحمل غيابه خصوصا في هذه البدايات. انطلق مسرعا صوب المنزل ولم يحترس في الدخول، كان يعرف أنها ما تزال مستيقظة. وجدها تزجي الوقت بهاتفها، ألقى عليها التحية وشرع ينزع ملابسه، أحس بها تكاد تنفجر حنقا وغضبا، فقال:

- ألم تصيبي عشاءك بعد؟
- لا، ولا رغبة لي بذلك.
- إني أعرف أني تأخرت عنك، لكنني حاولت الإسراع في العودة ما أمكنني ذلك. انهضي وأعدي شيئا تأكلينه؟
- أنت تعلم أني لا أحب أن آكل وحدي، كما أن السأم دب إلي في غيابك، حتى أني سئمت تصفح هذا الهاتف، حتى التلفاز الذي قد ينسيني هذه الوحشة في غيابك لا نملكه.
- لا بأس يا حبيبتي، سنبتاع تلفازا، إني أعدك بذلك. والآن انهضي وأعدي شيئا تأكلينه.

- نظرت إليه نظرة طفل تم إرضاؤه بعد كسر خاطره، ثم وثبت إلى حضنه وعانقته بشدة..

استيقظ ليصلي بالجماعة صلاة الفجر، وبعدما فرغ من الصلاة بقي في المحراب متفكرا في اليوم الموالي، سيكون هذا أول يوم يلقي فيه خطبة جمعة، عن أي موضوع سيحدثهم؟ وكيف ذلك؟ كان قد اعتاد فيما مضى أن يهيئ الجذاذة كلما كان على وشك إلقاء درس على المتعلمين. فهل يفعل ذلك في مثل هذا الموقف؟ ابتسم وكأن ما بدا له صعبا للحظة قد هان عليه، واستحسن الفكرة، أجل سيعد جذاذة، جذاذة لخطبة الجمعة. ففي الأخير الخطبة أهون من إلقاء درس، فهو سيلقيها على جماعة من الناس سيكتفون بالتلقي، لأنهم إن لغوا أفسدوا جمعتهم. أما الزمن فإنه بارع في تدبيره وفوق كل شيء، تدبر زمن خطبة الجمعة أهون من تدبير زمن التعلمات، وإن حدث أنه لم يكمل الخطبة فله أن يكملها في الجمعة الموالية ولا حرج عليه. ظل غارقا في مناجاة نفسه حتى كادت أن تطلع الشمس، لم يصدق أنه أمضى كل هذا الوقت يناجي نفسه. قام من مكانه وأعاد ترتيب بعض المصاحف في الرفوف بطريقة سليمة وكله طمأنينة، تلك الطمأنينة التي لم يعرفها قلبه يوما...

ارتدى الجلباب الأبيض ومن فوقه سلهاما أبيض كذلك وحليمة تنظر إليه بإعجاب منقطع النظير، لقد صار في عينيها أعظم من ذي قبل. أحب تلك النظرة في عينيها، ابتسمت له ابتسامة لا يمكن إلا أن تكون صادقة ونابعة من القلب، ثم دعت له بالتوفيق. دخل من الباب

الذي يفضي إلى وسط المسجد مباشرة، ثم ألقى السلام على المصلين فردوا عليه السلام، وجلس فوق المنبر يتمتم ببعض الكلمات، ومباشرة شرع المؤذن في تلاوة دعائه المأثور " روى إمامنا مالك ..." وبعدها تناوب المؤذنون في الآذان ثلاث مرات فقام إلى المنبر وألقى خطبة مؤثرة عن التوحيد بلغة فصيحة لا تشوبها شائبة.

لم يشعر بأي ارتباك أو أحس بأي رهبة تفقده توازنه، كان ينظر إلى المصلين نظرته إلى تلاميذه، واستطاع أن يوزع نظراته عليهم كما كان يوزعها على التلاميذ داخل الفصل. قام من جلسة الاستراحة الأولى وحمد الله تعالى ثم قال:

إخواني المؤمنين أخواتي المؤمنات، أستأذنكم أن أزيغ بخطابي نحو العامية فإني رأيت الكثير من المصلين، منهم من أخذتهم سنة النوم، ومنهم من غشيه النعاس. إن الأصل في هذه الخطبة هو الإفادة، وأنتم تعلمون رحمكم الله أن الناس ليسوا سواء، وليسوا على قدر واحد من المعرفة والتعليم، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: " سيروا سير ضعفائكم" ولذا فإني أرى من الخير أن نكمل الخطبة بلغة يفهمها الكل..

لم يكن من العسير عليه أن يلحظ تنبه المصلين في تتمة الخطبة وهو يخاطبهم بلغتهم التي يفهمونها جميعا.. وإن لم يكن هؤلاء قد حصلوا استفادة كبيرة في الخطبة الأولى، فإن ما فهموه من أمور دينهم في الخطبة الثانية زرع في أنفسهم حبورا وانشراحا عظيمين. جعلهم يحيطون فقيهم الجديد بهالة من الاحترام والوقار...

أنهى الخطبة وصلى بالناس صلاة أدرك فيها السواد الأعظم منهم معنى التخشع، ولما سلم استدار نحو المصلين يتلو سرا أذكار الصلاة. توجه صوبه الكثير منهم يسلمون عليه مرحبين أشد ما يكون الترحيب، فقد أحسوا بالكثير من الصدق في كلامه وبالكثير من اليسر واللين..

بعدما فرغ من تبادل التحايا دلف من الباب الذي دخل منه، وبعد أن اجتاز الممر القصير وجد نفسه أمام حليمة التي استقبلته هاشة في وجهه، فقد كانت خائفة مما ستؤول إليه الأوضاع في مثل هذا اليوم الذي توجست أن يكون عصيبا. لكن أفق انتظارها خاب، إذ أبلى جمال البلاء الحسن، حتى أن الإنسان يكاد يقسم على أنه ولد فقيها خطيبا يخطب في الناس. عرف ما انتابها من مخاوف والتي سعت جاهدة لإخفائها، وقال:

- ارتاحي يا عزيزتي، كل شيء على ما يرام، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات...
- إنك تدهشني كل يوم يا جمال، لا أدري أي شيء آخر تخفيه عني؟
- أين الغذاء يا عزيزتي، إني جائع.
- إنه جاهز، دقائق فقط...

تناولا غذاءهما وشعور بالرضى ينتابهما لأن حياتهما على ما يبدو تسير نحو الأفضل. انتحى جانبا بعد أن جاءته حليمة بطست ليغسل

يديه، وقبل أن يغمض عينيه أوصاها أن توقظه قبل آذان صلاة العصر، ثم استسلم لنوم خفيف لا يكدر صفوه خاطر أو هاجس...

كان الرجل الذي استضاف جمال في اليوم الأول قد أعلن للناس نبل أخلاق الرجل وسعة معرفته، ودماثة أخلاقه، وزكى أقواله ما شهدوه منه في صلاة الجمعة وأسر له الكثير من المصلين الحب والتقدير، أما بعضهم فلم يدلوا برأي في المسألة، وانتظروا ما قد تحمله الأيام، ولعلها عادة متأصلة لديهم مع كل الفقهاء الذين مروا من هذا المسجد، ولما رأى جمال من الناس هذا الحب والإيثار، مالت نفسه للاجتهاد فعزم على أن يفقه الناس في أمور دينهم عشية كل اثنين، استشار المكلفين بشؤون المسجد في هذه الخطوة، فأقروه عليها، وراقهم إشراك الإمام لهم في الأمر والأخذ برأيهم. ولم يدخروا جهدا في إذاعة الخبر بين المصلين، ولعل الحاج عمر كان أكثر تحمسا لإذاعة الخبر، فهو رجل جاوز الستين من عمره، ذو لحية بيضاء خفيفة، يكرس أوقاته التي تكاد تكون كلها فارغة لخدمة المسجد، خفيف الحركة، نحيل الجسد، دائم الابتسام مياد للسمرة، بين جوانحه روح طيبة خفيفة...

صلى بالجماعة صلاة المغرب، وعندما سلم أسر للمصلين أنه سيلقي درسا دينيا لمن يريد البقاء، وظل معظمهم في أماكنهم لأنهم كانوا على علم مسبق بهذا الدرس، بل لعلهم كانوا متشوقين له، وقبل أن يشرع في درسه احتار في أي لغة يتحدث بها؟ إنه يحب أن يتحدث الفصحى لأنه يعتقد أنها الأبلغ في تأدية المعاني . لكنه

عدل عن ذلك خاصة عندما تذكر خطبة الجمعة السالفة، وتذكر حادثة من ماضيه، فقد حدث ذات مرة حينما كان طالبا في شعبة اللغة العربية السنة الثانية، أن صلى الجمعة في مسجد يتحرج إمامه من أن يتلفظ كلمة واحدة بالعامية في خطبه، وتذكر كيف سأله أحد زملائه عن معنى كلمة "ناموس" التي جاءت في ثنايا الخطبة، فإذا كان طالب السنة الثانية لغة عربية قد عجز عن فهم كلمة الناموس، فما بالك بالعامة الذين لا حظ لهم من اللغة، لذلك عدل عن الفصحى ولم يلجأ إليها إلا في مقدمة درسه الذي ألقاه عن التسامح...

2

اعتراف

ما أسعدني بهذا الرجل، إنه يجعلني أشد افتنانا وجنونا به، وأي امرأة لا تفتتن برجل ولوع بكل نواحي الفن من أدب ورسم وموسيقى وشعر، لقد دفعني السأم والجلوس وحيدة في غيابه إلى أن أتغلب على كسلي ونفوري من القراءة، فقرأت ما كتبه في مذكراته بشغف وإن خاب ظني لأني توقعت أن أجد شيئا عنه في هذه الصفحات، شيئا من ماضيه الذي أجهل عنه أي شيء؟ هل كان يعرف أني قد أقرأ ما خطته أنامله؟ من يدري؟ إني أتوقع منه كل شيء. عودني جمال على ثقافة الاعتراف، كنت معه على الدوام مثل المسيحية الآثمة أمام القس الذي ترجوه أن يتوسط لها في الغفران.. لاحظت أنه يكتب عني الأشياء الجميلة فقط. لعله أشفق علي، أو أن حبه منعه من أن يكشف الجانب المظلم من حياتي، لكني أصدقكم القول إني ما عدت أخاف من ماضي المرعب منذ التقيته، لأني ولدت ولادة جديدة بين أحضانه، صرت لا أخاف ولا أخجل من ماضي الذي كان يلقي علي بظلاله الثقيلة.

أعلم علم اليقين أنه ود لو يكتب مأساتي، لكنه كبث هذه الرغبة بداخله. لقد ذكر كيف التقينا على عجل واتخذنا قرارات دون روية أو أدنى تفكير. لكنه أهمل أشياء كثيرة أخبرته عنها، لا ريب أنك استغربت أيها القارئ وأنت تقرأ عن شوقي لابنتي دون أن تعرف من أين جاءت هذه الابنة، ولا كيف هي الظروف التي أنشأتها؟

أنا سعيدة اليوم لأدلي باعترافي الثاني أمامك مثلما اعترفت أمامه هو أول مرة. لقد ولدت في أسرة متوسطة الحال، من أب يكد ليل نهار ليوفر حاجيات الحياة لي ولأختي اللتان تصغراني سنا، ومن أم مهووسة بالاعتناء بنفسها أكثر من الاعتناء بفلذات كبدها، كانت الخصومات تكبر يوما بعد يوم بين والدي، والشرخ يتسع بينهما جراء كل خصام، ولأننا كنا صغيرات حينها لم نكن نفقه شيئا، إلا أننا كنا ننتصر بوعي أو بغير وعي لوالدنا لأنه كان الأكثر عطفا وحنانا. وما إن بلغت الثانية عشرة وكانت أختي عزيزة آنذاك في التاسعة من العمر، ورشيدة في السابعة منه، حتى اتسع الشرخ بين والدي اتساعا أضحى من المتعذر إصلاحه، فتفارقا. وتزوج أبي امرأة أخرى وأغلب الظن أنه كان على علاقة بها. هل حقدت على والدي؟ كلا، لم أحقد عليه ولن أحقد. كيف أحقد عليه وقد كان في حاجة إلى العطف والحب، عطف وحب لم تكن والدتي تمنحهما إلا لنفسها دون أن تفكر أن تؤثر بهما غيرها ولو كانت بناتها...

قضيت ما تبقى من ربيعي الثاني عشر رفقة أختاي ومع هذه الأم الأنانية، كنا نخافها كأننا في كنف زوجة الأب، وليس مع أم خرجنا من صلبها، ليالي كثيرة قضيناها لوحدنا، يمزقنا الخوف وتؤرق الهواجس مضاجعنا، فأين كانت هذه الأم الأنانية آنذاك؟ هي تقول إن الظروف تضطرها للعمل ليلا، لكن أي عمل يستدعي أن تنفق ساعات أمام المرآة تتجمل وتتعطر وترتدي أفضل الثياب للخروج إليه، كنت وإن ساورتني الشكوك أخشى أن أفصح عنها أو أناقش والدتي فيها، لكن

لم يطل الوقت حتى صارت لا تأبه لآرائنا أو تلقي لها بالا، وصار رجل غريب يزورنا في المنزل ويقضي عندنا الليل. لم يكن من حقنا أن نستفسر من يكون؟ أو لم هو هنا؟ كان كل شيء يمر في صمت، لأن الصمت هو السبيل الوحيد لاتقاء غضبها.

بلغت الثالثة عشر ولم تزدد والدتي إلا فجورا وخلاعة. أما أنا فاختلط عندي الحابل بالنابل، أنقطع عن الدراسة حينا وأتابعها حينا، وكثيرا ما فكرت أن أستمر في الانقطاع، وبأعجوبة انتقلت إلى مستوى الثانية إعدادي، فشعرت أني ينبغي أن أخلص للدراسة ما دمت قد تهاونت فيها. وفوق كل شيء فالدراسة ملاذي الوحيد لأفر من ذلك الجحيم الذي أعيشه بالمنزل، بدأت سنتي الدراسية بكثير من الجد في التحصيل، مرت السنة بحسناتها وسيئاتها، هذا إن كانت فيها حسنات. لكن الملاحظ أني كنت أحصل على درجات جيدة في دراستي، انتقلت إلى مستوى الثالثة إعدادي، دون أن يهنئني أحد على النجاح أو يلقي لي أي بال. أما أختي فالله أعلم بحالهما، فهما تبدوان كأجساد بلا أرواح، فقد أهملت شأنهما، لعل شيئا من أنانية أمي قد أصابتني. لأني صرت أقضي كل الوقت إما في حجرات الدرس أو في المكتبة أقرأ قدر المستطاع ولا أعود للمنزل إلا بعد أن يسدل الظلام ستاره.

أرجو أن تعذرني أيها القارئ إني أشعر باختناق شديد، وهمت أني أمتلك القدرة على الاسترسال في سرد هذه الأحداث التي بترت عن قصد. لكني ضعيفة، ولطالما كنت ضعيفة، وتخيفني فكرة أن أظل

ضعيفة. إني أفكر أن أسكت عن الكلام المباح في هذه اللحظة، لكني لا أستطيع، أحتاج أن أفصح بهذه الأشياء لأتخلص من ثقلها، كما أني أريد أن أشاركه حياته، لا أطيق التفكير في أن ينفرد بشيء لنفسه، كما أني لا أريد أن تجهلوا هذا الجانب المظلم من حياتي. ما زلت أذكر بعضا من تلك المحاضرة التي ألقاها علي جمال في السرد بعد أن أنهى رواية وساوره شعور بالانتشاء، قال إن السرد هو العالم الوحيد حيث يسمح فيه للسارد أن يتلاعب بالزمن، يحذف ما يشاء، ويضيف ما يشاء، ويرتب الأحداث كيفما يشاء، وهذا شيء يستحيل تحققه في الواقع، وما دمت في رحاب السرد فاسمحوا لي ببتر سنوات من حياتي في الثانوية لأن لا شيء فيها ذي خطر...

غادرت حجرات الدرس مكرهة، فقد سئمت العودة إلى المنزل كل مساء؟ وفوق كل شيء سئمت أهله... أن تسأم من شيء لدرجة المقت الشديد هو أسوأ ما قد تواجهه في هذه الحياة. لذا كنت على استعداد لأن أسير في الأرض وأنظر كيف يعيش الناس في أول فرصة، وتحققت هذه الفرصة في اليوم الذي استشاطت والدتي غضبا، فقامت تكسر كل ما هو قابل للكسر من متاع المنزل. وعندما شرعت أهدأ من جنونها، دفعتني على الأرض وهي تهذي، وكان أقسى ما تلفظت به أننا سبب بؤسها، لأول مرة يجتمع في قلبي شعور بالحب والمقت صوب الشخص نفسه، مقتتها وأحببتها في الآن نفسه، وإن كان حبا أقرب إلى الشفقة. حضنت أختي أطمئنهما أن لا شيء يدعو للفزع. وعندما هدأ روعها، استلقت على سريرها

وغرقت في نوم عميق، لعلها أفرغت كل ما بداخلها. تسللت إلى غرفتها، ولم يكن من الصعب أن أعثر على محفظتها، فهي تبالغ في تنظيم غرفتها لدرجة المرض، أخذت كل ما بها من أوراق نقدية، وكنت في الصباح أتخذ لنفسي مقعدا في الحافلة المتوجهة إلى مكناس، متى؟ وكيف؟ ولماذا اتخذت هذا القرار؟ لا أدري!

أحيانا نتخذ بعض القرارات التي نعجب منها فيما بعد غاية العجب، نتخذها وننفذها، فتؤدي بنا إلى عوالم لم نكن لنعلم بها. أن تتخذ قرارا كأنك تتخذه مباشرة بعد ولادتك دون أي تفكير في تبعاته شيء أتشاركه مع جمال، وربما يكون هو قد بلغ في ذلك شأوا كبيرا...

استغرقت الرحلة ثلاث ساعات، لأن الحافلة كانت متهالكة ومع حلول الثالثة مساء بلغت مدينة مكناس، يممت وجهي شطر وسط المدينة أستكشف شوارعها، وفي أحدها حجزت لي في فندق متواضع من تلك الفنادق المنتشرة في "لهديم" حرصت أن آوي إليه باكرا مخافة أن يصيبني خطب من الخطوب خاصة أني وافدة جديدة. أمضيت أربعة أيام بالفندق متناسية أني مفلسة، ولن أستطيع أن أسدد ثمن الغرفة لليوم الخامس. وقبل أن يحين موعد إخلاء غرفتي، أي قبل الخامسة مساء بالضبط، توجهت إلى الاستقبال فأعطيت صاحب الفندق مفاتيح الغرفة دون أن ألقي عليه حتى التحية وخرجت أحمل حقيبة ظهري، لم يتبق لحلول الليل غير وقت يسير لكن ذلك لم يثر اهتمامي، بلغت من اليأس والحزن ما يبدد أي خوف بداخلي، كان الشجن ما يستحوذ على كل عواطفي، تعرضت لبعض

المشاكسات وأنا أسير، لكني لم أكن أولي أي اهتمام لهؤلاء الذين لا يتورعون عن المضايقات، سرت حتى سرى تعب شديد في جسدي، نظرت إلى ساعتي فإذا بها تشير إلى الثامنة، سرت ساعات دون توقف ودون وجهة..

ليس عجيبا أن يفقد الإنسان طريقه هكذا في الحياة وأن يسير دون وجهة، استبد بي التعب فانتحيت إلى مدخل عمارة وجلست القرفصاء أستجمع قواي، بدأ الشارع يخلو من الحركة، وبدأ الخوف يسري في نفسي. الخوف من مصير مجهول، إنه لمن الصعب على الفتاة أن تكون شابة تنضح شبابا وجمالا وتجد نفسها كالمشردة في الشارع، بل إنه يصح أن نحذف كاف التشبيه، ألست مشردة بالفعل ! وأنا تتقاذفني أفكار سوداوية لا حصر لها. فتح باب العمارة وخرج منها شاب وسيم تظهر الطيبة على محياه، حليق الذقن، أبيض البشرة، يظهر عليه أنه من زمرة الموظفين أو مستخدمي الإدارة، بيده مفاتيح سيارة، أثار انتباهه جلوسي القرفصاء وبجانبي حقيبتي، فألقى علي التحية باحترام كبير، وبجدية لا تخلو من عطف إنساني سألني عن سر قبوعي بالباب... حملني مظهره وكلامه الرزين على الثقة به، فأفشيت له سري كاملا بسذاجة أعجب منها اليوم كل العجب، ولمحت على محياه تأثرا كبيرا، طلب مني أن أتبعه وأردف يقول:

ـ اسمي عز الدين، وأنا من سكان العمارة تفضلي أدخلي معي، ليس من الآمن أن تقضي ليلتك في الشارع.

ترددت في مرافقته، فنظر إلي كأنه فقه سر هذا التردد:

ـ تفضلي يمكنك أن تنامي مع والدتي ولا خوف عليك.

شجعني قوله على مرافقته، كان يبدو صادقا في قوله مما لا يترك مجالا لأدنى شك بالتسرب للنفس، صعدنا السلالم وكنت أسير خلفه ولم يلتفت إلي ولو مرة واحدة. فتح الباب ودعاني للدخول آمنة مطمئنة، طلب مني أن أجلس في الصالون وسألني إذا كنت أحب أن أشرب شيئا، طلبت كأسا من الماء. عاد يحمل قنينة ماء وكأسا ووضعهما أمامي، سألته أين أمه؟

ـ إني أسكن وحدي.

رد علي بهدوء كأنه لم يفتر علي كذبا. فسألته عن سبب افترائه؟

ـ لم أشأ أن تقضي ليلتك بالخارج لأن جميلة مثلك لن تسلم من اعتداء وحشي، فحتى القبيحات المشردات لا يسلمن من اعتداءات ذئاب الليل البشرية.

شعرت بامتعاض كبير لا يشعر به إلا المغرر بهم، إلا أني توسمت في الرجل خيرا، وقلت له:

ـ لكن هذا لا يبرر افتراءك ولجوئك إلى الخديعة.

ـ خشيت أن أخبرك أني أسكن وحدي فتتمسكين بالبقاء خارجا.

شعرت ببعض الحرج إذ آلمتني محاكمتي للرجل وهو الذي انتشلني من الشارع هكذا...

قام من مقعده وشغل التلفاز ومد إلي جهاز التحكم :

ـأنت حرة في مشاهدة ما تشائين.

ثم غاب عن ناظري، شرعت أتصفح القنوات وبعد وهلة عاد وفي يده قنينة ويسكي وكأس، ودون أن ينبس بكلمة اتخذ له مكانا بقربي، وملأ الكأس حتى كادت تفيض مخالفا بذلك طقوس شرب الويسكي، كأن به عطشا شديدا للشرب. سرت رعشة الفزع في جسدي، لم أتوقع أن الرجل سكير. وما أخافني أكثر أنه أفرغ الكأس في جوفه في رشفتين فقط، توردت وجنتاه بفعل الخمرة، ونظر إلي نظرة حادة حرت في تفسيرها، قلت له بصوت متقطع:

ـ أين يمكنني أن أنام من فضلك فأنا متعبة؟

لم يلتفت إلي واكتفى بالقول:

ـ يمكنك النوم في غرفتي، إنها أمامك مباشرة.

قمت أتعثر في خطاي حتى بلغت غرفة نومه، كانت مرتبة أحسن ترتيب، فيها فراش وتير وأضواء خافتة مزينة بديكورات تنم عن ذوق رفيع... استلقيت في السرير، كنت مجهدة لدرجة استسلمت فيها مخاوفي أمام هذا الإجهاد والنصب فغلبني النوم... شعرت في لحظة أن السرير اهتز وأن شخصا يقاسمني إياه، وقبل أن أستوعب هذا الشعور أحسست بكف دافئة تتحسسني سبقتها أنفاس معطرة بالخمر، تسارعت ضربات قلبي تسابق أنفاسي، بقيت ساكنة بدون حراك واستمرت تلك الكف تتحسس مناطق حساسة من جسدي،

حرت في أي خطوة أتخذ. وعندما بالغت هذه الكف في تحسسي قفزت من السرير وتقوقعت على نفسي في ركن الغرفة وأنا أنظر إلى الرجل نظرة عطف واسترحام... قام من فوق السرير وأشعل النور... خيل إلي أني أراه لأول مرة؟ حال تعقله ورزانته شهوة ملتهبة... أشار إلي آمرا أن أعود للسرير لكني أبيت وأنا أستجديه أن يرحمني من أذاه، لكنه لم ينطق بكلمة إنما توجه إلي وأعادني إلى السرير بعنف كبير. قاومت بشتى السبل لكن ضرباته كسرت شوكة مقاومتي وحطمت كل دفاعاتي، جردني من ملابسي وبعنف أكبر اعتدى علي اعتداء شنيعا. لما قضى وطره تركني مغمية علي أتمتم بكلمات غير مفهومة، ودخل الحمام ليغتسل من خطيئته. عندما استفقت كنت كتمثال من رخام، لم أنطق بكلمة واحدة، لم أستوعب بعد كيف أني صرت في لحظة واحدة امرأة، نهضت بخطوات متثاقلة أمشي، أترنح كأني أتعلم المشي لأول مرة، دخلت الحمام وارتميت على الأرض وسيل من الدمع يهطل على خدي، قمت واغتسلت ظنا مني أن الاغتسال سيذهب ببعض ما لحقني من العار...تأملت جسدي في المرآة كأن بيني وبينه عداوة، رجوت لو أنفصل عن هذا الجسد المثير للفتن، وأصير روحا حرة تحلق في الأثير، لكن أنى لهذه الروح أن تحلق وقد كسرت جناحيها، عدت للسرير فوجدته قد غط في نوم عميق، شعرت بالمقت تجاهه، وتساءلت كيف يتحول الإنسان إلى وحش هكذا؟ خيل إلي أن داخل كل واحد منا إنسانا آخر يخفيه عن الناس، إنسان متوحش لا يظهر إلا في حالات خاصة، سال الدمع على خدي منهمرا، توجهت إلى المطبخ وأخذت

سكينا كبيرة وعدت لغرفة النوم، استبدت بي رغبة شديدة في قتله ردا لبعض الاعتبار وانتقاما لجسدي، أردت أن أثأر للدم بالدم، أن تسيل منه دماء أكثر مما أسال مني عنوة؟ وقفت عند رأسه لأخذ بثأري لكني فشلت، ضعفت حينما لم ينبغ أن أضعف.. ليس القتل بكل تلك السهولة التي تصورتها، أعدت السكين للمطبخ وتوجهت إلى الصالون، استلقيت على الأريكة أستجدي النوم، لكن عيناي ظلتا تجودان بدمع الأسى حتى الفجر، ثم غفوت إغفاءة نصب وإغفاءة من بالغ في جلد ذاته جلدا شديدا. وعندما استيقظت لم أجد له أثرا، سارعت إلى تفحص الباب فوجدته موصدا... يا لخيبة أملي هآنذا صرت سجينة، فيما يفكر هذا الوحش، أمضيت اليوم بطوله حائرة معذبة، وقد غدت الساعات كالسنوات، سئمت كل شيء، سئمت حتى نفسي... وفي الخامسة مساء سمعت صوت الباب يفتح، كنت كمن سجن في سجن انفرادي وسمع الحارس يفتح باب الزنزانة.

دخل وبيده أكياس كثيرة، يبدو أنه تبضع بعض الأشياء، ألقى علي التحية مبتسما هاشا في وجهي، تصرف كأنه نسي جريمته، وبدا كأنه لم يكن ذلك الوحش الآدمي أبدا، ظللت صامتة مطرقة برأسي . وضع الأكياس في المطبخ وعاد فجلس بجانبي وقال:

ـ لا تخافي يا حليمة، إني أعترف بأن ما حدث ليلة أمس خطأ. لكني سأكفر عن خطئي.

بقيت ساكتة، والتزمت الصمت الحذر...

ـ حليمة، لا داعي أن تضخمي المسألة، سأصلح كل شيء، سأتزوجك، وبذلك نكون قد أصلحنا ذات البين.

ـ بزواجك بي ستصلح الضرر الذي ألحقته بجسدي فقط، لكن ماذا عن روحي؟ كيف ستصلح انكسارها؟ ماذا عن هذه الذكرى المريرة التي سقيتني منها؟ من سيزيل آثارها من ذاكرتي؟

ـ إنها الخمر يا حليمة، وما كنت لأفعل بك ذلك في حالة صحوي، وإني أرجو أن يشفع لي عندك ما كنت فيه من ذهاب العقل.

هم إلى احتضاني وودت لو أصده، لكني كنت ضعيفة، واستبدت بي المخاوف فأنا خاسرة في كل الأحوال ولم يتبق لي غير التشبث بالأمل، وبوعده الذي رجوت الله ألا يخلفه...

صرت امرأة بين ليلة وضحاها، كنت عندما يتناهى لأسماعي أحاديث البنات عن العذرية، أستغرب كيف تحاط بكل هذه القداسة؟ وكيف لهذا الغشاء أن يخلق من الأنثى عذراء أو امرأة؟ لكن العجب قد بطل، فقد خيل إلي وأنا أنظر في المرآة أني صرت امرأة وأن جسمي قد لحقه التغيير وازداد وزنه!. لا أدري كيف ألفيتني في طرفة عين قد غدوت ربة منزل تحاول أن تتفانى في عملها خشية أن ينهار كل شيء، ومع مرور الأيام ألفت هذه الحياة. أمضي النهار في أعمال البيت وأنفق وقتي المتبقي في مشاهدة التلفاز إلى حين يعود عز الدين من العمل، حاولت أن أفاتحه غير ما مرة في موضوع الزواج لكنه كان ينفر من الموضوع نفور السليم من الأجرب، يختلق عشرات

الأعذار ويقطع الكثير من الوعود. إني أفقد القدرة على وصف هذه التجربة، أعجز عن التقاط كل تلك التفاصيل من ذاكرتي، لأني جهدت في وأدها واستبدالها ببعض الذكريات الحسنة..

أمضيت مع عز الدين ثلاثة أشهر كنت فيها الخادمة التي تقوم بأعباء المنزل نهارا، والغانية التي يتمتع بجسدها ليلا... بدأت أسأم وعوده الفارغة وكذبه الذي يسبغ عليه نبرات الصدق، غدوت موقنة أنه إنما استغلني فقط، كان يماطل حتى يجنب نفسه أي متابعة قانونية وفوق كل شيء كان يشبع نزواته من غير ثمن، فكرت بالهروب من هذا السجن المقيت، لكني كنت خائفة من العالم الخارجي، فأنا لم أعد أملك أحدا غير هذا الرجل الذي باعني الوهم...

صار أكثر ما يشغلني هو كيف أغادر هذا المكان، لم يكن في مغادرة المنزل أي عسر، فقد أضحيت أتوفر على نسخة إضافية من مفاتيحه، أعطاني إياها بعدما اطمئن إلي وتيقن من عجزي، كل ما كنت أحتاجه هو بعض المال فقط، وهو ما لم أكن أملكه. فكرت في تحطيم أحد أدراج خزانة ملابسه التي يحتفظ بمفتاحها دائما، لكني خشيت ألا أجد ما يسد حاجتي فيه، فعدلت عن الفكرة. إلا أن عدولي عنها لم يكن إلا عدولا مؤقتا، إذ سرعان ما استهوتني الفكرة ووجدتني ذات صباح أكسر هذا الدرج، سررت بالأوراق النقدية التي وجدتها فيه، كانت حوالي خمسة آلاف درهم. دسستها في جيبي على عجل، كان في الدرج أيضا علبة مغلقة، فتحتها لعلي أصيب منها ما يكون ذا نفع وفائدة، إلا أني لم أجد فيها غير قطع من الشعر من مختلف

الألوان والأشكال، وكل قطعة ملفوفة في ورقة دون عليها اسم معين، استغربت حينما وجدت قطعة من شعري أيضا، ظننت أن الرجل يمارس طقوسا سحرية ما لذا يحتفظ بهذه القطع من الشعر، حتى أني ذهبت في تأويلي مذهبا بعيدا، واعتقدت أن بقائي لهذه المدة بهذا المنزل إنما هو بفعل السحر الذي يمارسه الرجل... ولم أشعر بتفاهة تفسيراتي إلا حينما قصصت الواقعة على جمال، وأكد لي أن الأمر لا علاقة له بالسحر، وإنما هو ضرب من الشذوذ يعاني منه الرجل، وحدثني عن كثير من الأمراض النفسية المشابهة لتلك الحالة. وأني ولا ريب قد سببت ألما كبيرا للرجل عندما تخلصت من كل قطع الشعر في دورة المياه.

غادرت ذلك المنزل غير نادمة واستقليت حافلة إلى الدار البيضاء لمجابهة مصير جديد لا أعلم عنه شيئا، وحوالي الخامسة والنصف اتصل بي عز الدين فأجبت اتصاله. كان صوته مضطربا أشد الاضطراب.

ـ أين أنت؟

ـ أفر منك ومن وعودك الكاذبة، ومن تلك المدينة التي أرجو في سريرتي أن تختفي من الخريطة.

ـ عودي يا حليمة، عودي أرجوك، سيكون كل شيء على ما يرام.

ـ وداعا ..

ـ انتظري، أين قطع الشعر على الأقل؟ ماذا صنعت بها؟

أغلقت الهاتف في وجهه، وكسرت شريحة الهاتف، أردت أن أتخلص من كل شيء، وددت لو كنت قوية كفاية لأتخلص حتى من نفسي، توقفت الحافلة بمحطة "ولاد زيان". ترجلت من الحافلة وغادرت المحطة لأستقل سيارة أجرة دون أن أعرف إلى أين في الوهلة الأولى، وعندما سألني السائق عن الوجهة قلت:

ـ مسجد الحسن الثاني.

انطلقت السيارة تخترق ذلك الزحام المروري الذي أشهده لأول مرة، لم أفكر لم اخترت هذه الوجهة، لعلها الشيء الوحيد الذي أعرفه في هذه المدينة أو لعلني أردت رؤية البحر... وأنا غارقة في تأملاتي توقفت السيارة وطلب مني السائق الترجل فاستجبت، نقدته الثمن واتجهت إلى باحة المسجد الفسيحة. أدهشني معمار المسجد وضخامة صومعته وعلوها الشاهق، كان الجو جميلا لولا الرطوبة التي تملأ الجو. آذان صلاة المغرب يعلو السماء، فكرت أن أصلي، إن هذا المسجد يغري الإنسان بتأدية صلاة ولو على سبيل استكشاف المكان وإن لم يكن مخلصا في ذلك... لم أعرف أي باب أسلك ولا أين تتوضأ النساء، وخطر لي أن أسأل امرأة تقصد إلى الصلاة. رأيت شابة بلباس محتشم تتجه إلى المسجد فلحقتها بخطوات سريعة، استوقفتها وسألتها حاجتي، بدت سعيدة بتقديم المساعدة ولعل كل الناس يسعدون بتقديم المساعدة فيما يتعلق بالصلاة وأعمال البر والتقوى، أردت أن أسألها بعض الأسئلة الأخرى، وبدا علي التردد،

فطنت إلى ترددي فنظرت إلي نظرة ترفق واستفسرتني عن علة الاضطراب:

ـ هذه أول مرة أؤدي فيه صلاة.

ابتسمت ابتسامة عذبة كشفت من خلالها عن ثغر عذب قائلة :

ـ لا عليك، اتبعيني.

كنت كمن تدخل الإسلام أول مرة، لا أدري لما لم أفكر يوما في الصلاة، وممارسة الشعائر التعبدية مثلي مثل الكثير من المسلمين ! أخدتني لمكان الوضوء فتوضأنا وصعدنا لمكان الصلاة. سرت رعشة في بدني، شعرت بنفسي آثمة تدخل مكانا مقدسا، أردت التراجع لكن هذه الشابة استبقتني بكثير من اللطف، أدينا الصلاة وخرجنا للباحة. لم نكن قد تعارفنا بالشكل المطلوب بعد، قلت لها اسمي حليمة وأخبرتني أن اسمها جيهان.

ـ اسم جميل يا جيهان، تشرفت بمعرفتك وأشكرك على مساعدتي في تأدية أول صلاة.

ـ لا عليك يا أختي، أرجو من الله أن يوفقك في هذه البداية وأن لا تقطعي هذه الصلة بينك وبين ربك، أين تقطنين؟ يبدو من لهجتك أنك لست من البيضاء.

ـ أخبرتها أني قدمت البيضاء للتو، وأن هذا أول مكان أزوره.

ـ هل جئت عند أحد معارفك؟

ـ لا، لا أعرف أحدا هنا، لا أدري بعد أين سأذهب، ربما أقضي الليلة في أحد الفنادق.

استشعرت جيهان كم الحزن الذي يجثم على قلبي، وأخذتني من يدي وتوجهت بي إلى أحد الكراسي الإسمنتية المنتشرة بالمكان، ثم قالت:

ـ أخبريني ما بك؟

حدثتها بكل شيء، وبصدق تام. أشفقت علي إشفاقا عظيما وعرضت علي مرافقتها لمنزل أسرتها. أبديت بعض الرفض وأصررت إصرارا واهنا على قضاء ليلتي في فندق، لكنها كانت من الكرم ودماثة الأخلاق بحيث أنها كسرت هذا الإصرار وأقنعتني بمرافقتها. خيرتني جيهان بين أن نستقل سيارة أو نتمشى على الأرجل، كانت هذه من بين المرات القليلة التي أمنح فيها الاختيار، فاخترت أن نتمشى، هكذا سيتاح لي أن أتعرف على بعض شوارع المدينة، بلغنا وجهتنا فيما يقرب الساعة. فتحت جيهان باب المنزل ودعتني للدخول بأدب جم. أشارت لي أن أجلس في الصالون واختفت هي بالداخل، لا ريب أن والدتها كانت بالمطبخ تعد العشاء، لأني سمعت بعضا من تحاورهما، بعد هنيهة جاءت والدة جيهان وسلمت علي وفي عينيها كثير من الإشفاق الأمومي، أعادت الترحيب بي، وعادت للمطبخ لتنهي ما هي بصدده. أما جيهان فأمسكت بكفي واتجهت بي إلى غرفة نومها، كانت غرفة نوم كل جزء منها عليه بصمة الأنثى، فيها سرير متواضع

وخزانة ملابس، وبعض اللوحات الجميلة على الجدران. شرعت تغير ملابسها وأدهشها أني بقيت جامدة في مكاني.

ـ ماذا تنتظرين يا حليمة؟ هيا قومي وغيري ملابسك.

في لحظة ما خشيت أن أغير ملابسي أمامها، وكأن جسدي عليه آثار تلك الخطيئة. لكنها لم تلح علي بل غيرت ملابسها بسرعة والتحقت بوالدتها لتساعدها في إعداد العشاء. غيرت ملابسي واتجهت نحو الصالون وانزويت حول نفسي، فما أقصى هذا الشعور الذي يلم بالمرء عندما يكون غريبا بين الغرباء. عادت جيهان لتكسر عني عزلتي وتخفف عني هذا الشعور بالضيق، فطفقنا نتحدث في أمور كثيرة إلى أن دخل علينا شاب فارع الطول، حسن الهندام، يميل لونه إلى بعض السمرة التي تضفي عليه سحرا بينا. ألقى علينا التحية واستشعرت استغرابه لوجودي، بدوت كشيء غير متوقع، اتجه للمطبخ، لعله أراد أن يستفسر أمه عن هذه الوافدة الجديدة، تبعته جيهان ربما لتحيطه بمزيد من التفسير، وبعد لحظة عاد مع جيهان وألقى إلي كلمات رقيقة في الترحيب، تناولنا العشاء معا، عشاء عائلي بما للكلمة من معنى، فهذا الأخ طيب السجايا يحيط أمه وأخته بحظ يسير من العطف والحب، عطف وحب يفتقدهما الكثير من خلق الله. بعدما فرغنا من العشاء تمنى لنا رضى – هذا هو اسمه- ليلة سعيدة واتجه لغرفته تصاحبه دعوات أمه، أثنت عليه والدته الثناء الحسن وعددت مزاياه ودعت له بالصلاح وطول العمر، يا لهذه الأم الطيبة ! تمنيت لو كانت لي أم مثلها... قمنا أنا وجيهان لغرفة

نومها وهيأت لي مكانا للنوم في الغرفة. تحدثنا لساعات طويلة حتى وقت متأخر، منحني ذلك الحديث صورة واضحة عنها، إنها فتاة في طيبة أمها شيء منها. عاشت تنهل من حب الأم والأخ، أما الأب فقضى في حداثة سنها، لم تستشعر الحرمان يوما، أفكارها عن العالم الخارجي محدودة جدا لا تكاد تعرف منه شيئا.. استيقظت قبل جيهان لكني لم أقدر على مبارحة مكاني، انتظرتها حتى استيقظت وكان أول ما نطقت به هو أنها أضاعت صلاة الفجر...

أمضيت ثلاثة أيام مع هذه الأسرة التي تغدق الحب على بعضها، وفي اليوم الرابع أخبرت جيهان اني أريد أن أبحث عن عمل إذ لا يمكنني أن أبقى عالة عليهم هكذا، نظرت إلي مبتسمة وكأنها كانت تتوقع مني هذا السؤال.

ـ لا تتعبي نفسك بكثرة التفكير، لقد سبق أن تناقشنا هذا، إن أخي كما تعلمين صاحب محل أجهزة الكترونية، ويعرف الكثير من الناس، وقد فاتحناه أنا وأمي في هذا الموضوع ووعدنا أنه سيبذل جهده في أن يجد لك على عملا، فاطمئني.

في المساء دبت حركة غير عادية في المطبخ، كانت الأم تعمل باجتهاد كبير، وتصدر الأوامر لجيهان. انخرطت معهما دون شعور، استفسرت جيهان حول هذا الاستنفار فأحاطتني أن أصدقاء لرضى سيتناولون العشاء بالبيت، حضرنا العشاء وكل ما يلزم. وبعد أن صلى رضى صلاة العشاء بالخارج جاء رفقة ثلاثة من أصدقائه، رحبت بهم الأم ترحيبا جميلا كأنها اعتادت مثل هذه الزيارات، حملت جيهان

صينية الشاي وطلبت مني أن أحمل الطبق الذي رصت فيه أطباق صغيرة مختلفة ألوانها بعضها فيه عسل والأخرى حلوى والثالثة تمور. توردت وجنتاي وشعرت ببعض الخجل، لكن جيهان شجعتني على المضي معها. قدمت جيهان الصينية لأخيها، وبينما أنا أضع الأطباق الصغيرة على المائدة شعرت أن عينا ما تراقبني، وضعت تلك الأطباق بسرعة البرق وانصرفت دون أن أمعن النظر في أحد من الحضور.

بعدما غادر الضيوف، تناولنا أنا وجيهان ووالدتها العشاء. فهكذا تجري الأمور، غالبا ما تكون النساء آخر من يصيب حظهن من الأكل بعد الرجال طبعا. نادى رضى على أخته فتبعته، أما أنا فتوجهت إلى غرفة نوم جيهان حيث مرقدي، عادت جيهان وفي أديمها علامات الاستبشار، وزفت لي تلك البشرى التي كنت تواقة لسماعها... لقد صادف أن سأل المدعوون عمن أكون، وأخبرهم رضى أني صديقة جيهان وأنه يبحث عن عمل لي يحفظ ماء الوجه، وأبدى أحد أصدقائه واسمه مصطفى رغبته في منحي عملا في مطعمه. لم أسأل عن نوع العمل، بل إني كنت سعيدة لأني أخيرا سأعتمد على نفسي، أخبرتني جيهان أن رضى سيأخذني في الغد بنفسه حتى مكان العمل وسيوصي بي صديقه خيرا، وما إن حل الصباح وتناولنا الإفطار معا حتى خاطبني رضى دون أن ينظر إلي:

ـ أحضري أغراضك يا حليمة، سنذهب الآن.

كانت هذه أول مرة يخاطبني فيها مباشرة، قمت وغيرت ملابسي وأحضرت حقيبة ظهري، وقبل أن أغادر ودعت جيهان ووالدتها وبكيت في حضنهما كما لم أبك من قبل، فدينهم علي كبير جدا، بحيث أعجز عن رده يوما ولو أردت... رافقت رضى وركبنا سيارته، شغل شريط قرآن كأنه عازم على طرد الشيطان الذي قد يكون ثالثنا. لم يلتفت إلي طوال الطريق ولا انفرجت شفتاه عن كلمة. عقدت مقارنة في ذهني بين رضى وبين عز الدين، وتساءلت كيف يقدر رضى على كبح الإنسان الآخر بداخله؟ ماذا لو أتيحت له الفرصة التي أتيحت لعز الدين؟ فهل كان ليزهد فيها؟ لا، إني أسيء الظن بهذا الرجل الصالح، لو كان أراد استغلالي لفعل ذلك الآن. لكنه إنسان يتقي الله ويخافه، توقف رضى أمام مطعم جميل، وفتح باب السيارة وترجل منها وانتظر أن أفعل المثل، رافقته إلى داخل المطعم ووجدنا مصطفي عند الصراف يقوم ببعض الحسابات، رحب بنا ونادى النادل وطلب منه أن يرافقني إلى المطبخ، رافقت النادل إلى المطبخ وبقي رضى ومصطفى يتبادلان الحديث.

في المطبخ امرأة في عقدها الخامس وأخرى في الثلاثين من العمر أو تزيد على ذلك قليلا، ولعلي هنا لأساعدهما إذ لا أتخيل أن تحملا كل هذه الأعباء وحدهما، ألقيت عليهما التحية واستقبلتني كلاهما بغير اهتمام... قدمت لي وزرة بيضاء وشرعت في غسل الصحون، إلى أن أطل النادل من نافذة صغيرة تطل من فضاء المطعم على المطبخ، وقال إن السيد مصطفي يطلبني، جففت

يدي وخرجت عنده، وهناك وجدته واقفا مع رضى الذي كان على وشك الانصراف، وقبل أن يغادر رضى قال لي دون أن ينظر إلي كعادته:

ـ بالتوفيق يا حليمة، مصطفى سيتدبر لك سكنا مؤقتا ريثما تستقر أوضاعك، ويمكنك السكن أنى شئت بعد ذلك.

شكرته على جميله، ووددت لو أعانقه تعبيرا عن شكري معانقة الأخت لأخيها. انصرف رضى وتفحصني مصطفى بنظراته الحادة، وبعد أن شعر أن نظراته تجاوزت الحد قال:

ـ أرجو أن يعجبك المكان، وإن احتجت شيئا فلا يمنعنك الحياء من إحاطتي بالأمر.

شكرته وانصرفت إلى عملي، وفي المساء رافقني مصطفى في سيارته إلى مكان لا أعلمه، ولم أملك الشجاعة لأسأله في الطريق، وقفنا قرب بيت لا يبعد عن المطعم كثيرا، وصعدنا إلى الطابق العلوي ليريني غرفتي الجديدة التي اكتراها من سيدة يعرفها، رغم أن الغرفة لم تكن فسيحة إلا أنها كانت تفي بالغرض، تجرأت هذه المرة وسألته عن أجرة الكراء، كنت مستعدة لأدفع، ما يزال عندي كل المال الذي اختلسته من رجل الوهم، لكن مصطفى أبى أن يأخذ مني درهما، وأخبرني أنه تمت تسوية كل شيء، يمكنني أن أدفع لاحقا...

أمضيت ما يقارب الشهرين في المطعم أعمل باجتهاد منقطع النظير، حتى لا أضيع هذه الفرصة ولا أخون ثقة تلك الأسرة الطيبة،

وكانت نظرات مصطفى وكلامه يكتسي طابعا خاصا كل يوم إلا أني لم أتجاوز حدود اللباقة معه يوما، وذات يوم أصر على أن يوصلني إلى البيت بعدما أغلق المطعم، حاولت أن أثنيه عن ذلك لكن إصراره كان أقوى. ركبنا السيارة ثم قال لي بصوت جدي هادئ:

ـ حليمة، أريد أن أفاتحك في موضوع.

ـ تفضل يا سيد مصطفى.

ـ أريد أن أتزوجك.

شعرت بقلبي يتوقف عن الخفقان، وشعرت بانقباض عجيب، إذ لم أكن مستعدة لهذا السؤال، بل إني لم أتوقعه يوما.

ـ ما رأيك؟ أراك التزمت الصمت، هل أعتبر السكوت علامة الرضى؟

ـ لا يا سيد مصطفى، لا أستطيع، وأرجو أن تعذرني على رفضي لكني لا أستطيع.

ـ إن كان ما حدث معك هو السبب، فلا تعتبري ذلك عائقا أمام هذه الزيجة، فأنا أعرف كل شيء، ولست ممن سيحاسبك على شيء لا ذنب لك فيه.

ـ ماذا؟ تعرف كل شيء؟ كيف؟...

قاطعني ثم أضاف:

ـ جيهان أخبرتني بكل شيء، وقد استشرتها في الأمر وشجعتني عليه. وحتى رضى استحسن هذه الخطوة، إني أضع المسألة بين يديك الآن فلك أن ترفضي أو تقبلي.

ـ إنك تستحق من هي أفضل مني.

نظر إلي بابتسامة عذبة ثم سكت إلى أن بلغنا المنزل، ظننته كان يمزح فقط، وعندما فتحت باب السيارة أمسك بيدي، شعرت بقشعريرة تسري في جسدي، لم ألتفت إليه، فقال بصوته الهادئ:

ـ غدا يوم عطلة بالنسبة إليك، ارتاحي وسأمر بك لنتسوق معا وفي المساء سنتناول العشاء عند أسرة رضى...

كان كل شيء كالحلم، في بضعة أيام فقط وجدتني في منزل عائلة مصطفى ببادية بن سليمان، كان مصطفى قد اخترع لي حياة غير حياتي، حياة فيها بعض الشرف، وقد لقنني أطوار هذه الحياة التي خلقها من أجلي مخافة أن تأبى أسرته هذه الزيجة، خاصة أمه التي لا يخفى ما على أديمها من ملامح الصرامة والوفاء للتقاليد... كنت أواجه كل الأسئلة التي تلقى إلي عن حياتي بما لقنني إياه مصطفى، وكم كنت أجهد حتى لا أخلط بين حياتي الأصلية والحياة التي اصطنعها لي، لقد جعلني حرصه علي أتعلق به أشد التعلق وأوثره بكثير من الحب، أمضينا نحو الشهر معا. شهر ينضح بملذات الحب اكتشفت فيه أن شهر العسل إنما يمضي أحلى في أي مكان

شرط أن يخلص الزوجان في حبهما ويتفانيا فيه ما وجدا إلى ذلك سبيلا.

انتهى الشهر واضطر مصطفى للمغادرة صوب البيضاء، حتى يتاح لأخيه أيضا المجيئ. فقد اعتاد أن يتناوب هو ومصطفى على تولي شؤون المطعم...

غادر مصطفى وأحسست بالغربة منذ أول يوم، وشعرت أني على وشك أن أؤدي ثمن سعادة ذلك الشهر الجميل الذي أمضيته في أحضان زوجي مصطفى. كان جفاء أمه يزداد نحوي يوما بعد يوم، ولم تعد تتحرج من توبيخي أو نهري على أبسط الأخطاء في عيني، والعظيمة في عينيها، فكرت أن أبث شكواي لمصطفى حينما يهاتفني، لكني لم أشأ تكدير صفوه، لذلك كنت أطمئنه أن كل شيء طيب وعلى ما يرام، وأكتفي بالتعبير له عن شوقي الكبير. تأخرت عادتي الشهرية فعلمت أن مصطفى ترك وراءه بذرة في أحشائي، واتخذت هذا سببا لمزيد من الصبر والتجلد أمام كل القسوة التي كنت أجابه بها. أسريت لمصطفى بالخبر فطار قلبه فرحا، وفي اليوم التالي قدم دون إخبار ليحتفل معي بهذا النبإ العظيم. لم يحدثني بموعد عودته إلا عندما استيقظ في الصباح الموالي محتارا كيف يخبرني برحيله. بكيت في أحضانه كطفلة عاجزة، كفكف دمعي وقبلني بين عيني واعدا إياي بالعودة في أقرب وقت.. أمضيت أياما أحلم به كل ليلة، وإن لم يطاوعني الحلم، أتخيل نفسي في أحضانه قبل أن يغلبني النعاس.

طال غياب مصطفى إلى أن صرت في شهري السادس، ليظهر فجأة بعد غياب طويل، لم أعاتبه وإن كنت عازمة على استقباله بكثير من العتاب. إنما انقلب تبرمي واستيائي إلى فرح حينما علمت أنه سيمكث معي إلى أن أضع المولود، وجوده معي سيطفئ الشوق الذي يتأجج داخلي، وفوق كل شيء سأعامل ببعض اللين والاحترام، فوالدته تتلطف بي أمامه حتى ليخيل إلي أنها غير المرأة التي تقتنص كل فرصة لتعنفني، كانت الأشهر التي أمضيتها مع مصطفى قبل الولادة أجمل أيام حياتي، نسيت خلالها كل الإساءات التي تعرضت لها من قِبَل أمه، فقد شملني بكثير من الحب والإيثار.

وضعتها أنثى، ولم يخطر ببالي أن الذكر ليس كالأنثى، بل سعدت بذلك أيما سعادة، وشعرت بالغبطة والسرور لأني رمقت السعادة في عيني مصطفى أيضا. لكن هذه الفرحة لم تكتمل لأن بعض الناس بالنسبة إليهم الذكر ليس كالأنثى. بل إنهم يغالون حتى في أحكامهم ويحملون المرأة مسؤولية ولادة أنثى، وإن كان العلم قد حسم في الأمر وأنصف المرأة. فأنى لهؤلاء الناس أن يقتنعوا...

كانت أم مصطفى من هؤلاء الناس الذين يؤثرون الذكر على الأنثى وتضيق أنفسهم إذا جاء القدر بما لا تهواه أفئدتهم. بعد وضعي قرة عيني التي أسميتها هبة، غادر مصطفى إلى البيضاء وصار من الممكن لحماتي أن تنفس غضبها علي بحق أو بغير حق. عدمت الصبر هذه المرة فكاشفت مصطفى بالأمر، فحار في الجواب، طلب مني بكل رفق أن أصبر وأجري على الله. لكني صعدت

في نبرة اشتكائي، وصرخت عليه. ولم يكلمني بالمثل بل قال لي بصوت هادئ:

ـ سنتحدث لاحقا. عندما تهدئين سأهاتفك.

وقطع الاتصال. مزقني الندم وحبل بي اليأس، وتمخضت بي الكآبة. ندمت لأني حدثته بتلك الطريقة. وأسفت لأنه جابهني بذلك الهدوء ولم يبد موقفا مما قلته. بقيت أنتظر اتصاله مضطربة الأعصاب أشد الاضطراب. حينها شعرت أن جهازي العصبي مصاب ومرهق إرهاقا شديدا، كانت به كدمات تراكمت على مر السنين حتى لم يبق مكان لأي كدمة جديدة، فأصبت بانهيار عصبي، وما أسوأه من مرض لأن الكثير من الناس لا يدرجونه ضمن الأمراض المزمنة مثل الإيدز أو السرطان، وأنا أرى أنه أخطر منها. لماذا؟ لأن البدن إن أصابته كدمة سرعان ما تزول، والأمراض المزمنة كالسرطان والإيدز يشفى أصحابها، أو يلقون حتفهم ولا حل وسط. أما من أصيبت أعصابه فإنها لا تقتله إلا نادرا، وإن كانت قد تدفع به إلى قتل نفسه في أوقات الهيجان. إنما تعذبه فقط، وتحدث الكثير من البلبلة في أفكاره وعواطفه وتزيده رهقا.

جاء اتصال مصطفى متأخرا. هل كنت لأتجنب ذلك الانهيار العصبي الذي تلته انهيارات أخرى كعقد قطع خيطه الناظم فتسربت حباته تباعا لو اتصل مصطفى باكرا؟ لا أدري، ربما، لكن لا ريب عندي أني كنت مهيأة لهذا الأمر. أوصاني مصطفى بالصبر ووعدني أن يتدبر حلا في المستقبل، وأنه لا يقدر أن يصحبني إلى البيضاء، ولا

هو قادر على أن يتخلى عن أمه. التمست له العذر فما أصعب أن يخير الإنسان بين امرأتين يحبهما، أمه وزوجته. توسلت بالصبر من أجل ابنتي وزوجي، لكن الحماة ازدادت غيا وأصرت على أن تحضر عائلتي لتتعرف عليها، لأنها تتشبث بفكرة أني لقيطة. وبلغ بها التعصب أن أصرت على مصطفى أن يستدعي عائلتي ليراها الناس والأقارب حتى تخرس ألسنتهم، أو هكذا ادعت وبررت رغبتها...

اضطر مصطفى أن يذهب حتى مدينة خنيفرة بعدما أمددته بالعنوان والتفاصيل عن سكن أمي. سافر مصطفى وأحضر أمي وأختاي معه. لم يحدث والدتي بأي شيء مما طرأ على حياتي بعد هروبي من المنزل، كان رحيما بي ولذلك أحببته لدرجة الجنون.

التقيت بوالدتي كأني ألتقي غريبا، لم يتغير فيها شيء. متصابية كما كانت وماتزال، أما أختاي فقد كبرتا وكبر الحزن في عينيهما. عرفت مقدار شوقي لهما حينما رأيتهما فقط. ابتلعت أم مصطفى لسانها خاصة أن أمي كانت تحدثها بشيء من الترفع ضاربة كل أفق توقعها عرض الحائط. إذ كانت تتوقع أن تمثل أمامها امرأة مذلولة تستذر العطف والرحمة للإبقاء على ابنتها في عش الزوجية... لاحظت أمي ما صرت فيه من كآبة وهزال فنهرتني على إهمال نفسي كأني ما أزال تحت وصايتها، ولأني كنت بأمس الحاجة لمن أفضي له بما يثقل على قلبي، حكيت لها كل شيء دامعة العينين منتحبة. عانقتني وحاولت أن تهدأ روعي، لعل شيئا من العطف الأمومي استيقظ بداخلها وأيقظ بداخلي أنا بعضا من الشعور الذي

تكنه الابنة لأمها. انتفضت وأمرتني أن أوظب أغراضي، فدهشت من طلبها وبقيت جامدة. أعادت الأمر بلهجة أقوى، أردت أن أوضح لها أني لا أقدر على مفارقة زوجي ولا ابنتي، لكنها كانت غاضبة، استجبت لها دون أن أشعر بذلك، فهذه أول مرة ينتصر لي أحد بهذا الغضب..

بدت أم مصطفى منشرحة بهذا القرار وإن حاولت أن تخفي انشراحها أمام ابنها، أما مصطفى فغشيته سحابة من الحزن والغضب. أمسك بذراعي وقادني لإحدى الغرف ثم قال:

ـ هل تعرفين ما أنت مقدمة عليه يا حليمة؟ إني أطلب منك أن تتريثي في اتخاذ هذا القرار، وأعدك أن أجد حلا عاجلا وليس آجلا. لا تخربي هذا البيت يا حليمة.

ـ انهيار إثر انهيار يا مصطفى، استنفذت أمك طاقتي، أتظن أن فراقك شيء هين وأنت الذي أحسنت إلي وشملتني بحبك.

ـ إني أطلب منك أن تبقي يا حليمة، إن خرجت فسأضطر لأخذ هبة منك، وأنا لا أريد أن أفصل بينك وبين ابنتنا.

في لحظة غضب وضعت هبة على الأرض، وخرجت عند أمي ورافقتها إلى الخارج. انتظرت أن يتبعني مصطفى، أن يوقفني، أن ينتزعني من أمي ويعيدني إلى البيت، لكنه لم يفعل. كانت تلك آخر مرة أرى فيها مصطفى، وآخر مرة أرى فيها هبة وذلك البيت. عدت لأعيش مع أمي كالغريبة، أتشاجر معها أحيانا، وأحيانا قد لا نتحدث

إلى بعضنا لأيام، خفت انهياراتي العصبية شيئا ما، إلا أن شوقي لابنتي كان أكثر ما يعذبني...

خرجت حليمة إلى السوق وهي ترتدي برقعها الذي لم تألفه بعد، فهي تراه سجنا لجسدها، ولولا إصرار جمال لترتديه لما ارتدته. بل إنها ما تزال في حيرة من أمرها كيف وافقت على هذا الأمر! وهل تملك غير الاستسلام أمام قراراته وهي العاجزة عن مجادلته !. وبينما كانت تقتني بعض الحاجيات النسائية سمعت تحاور شابتين بقربها، وقد ورد في حديثهما ذكر مدينة بني ملال. المدينة التي ينتمي إليها جمال، إنها تحب هذه المدينة أكثر مما تحب مدينتها، لا لشيء، سوى لأنها أنجبت هذا الرجل الذي ملأ حياتها حبا وعطفا وتقديرا. استدارت نحوهما وسألتهما:

ـ هل أنتما من بني ملال؟

استغربتا بادئ الأمر كيف لامرأة منقبة أن تحادث متبرجتين مثلهما، خاصة أن تبرجهما كان فاضحا وشديد الإغواء، لربما أول مرة تسقطان في مثل هذا الموقف. لاحظت حليمة اندهاشهما فحاولت أن تنتشلهما من دهشتهما، فرفعت برقعها لتهدئ روعهما، وقالت:

ـ سمعتكما تتحدثان عن بني ملال، وقد لفت ذلك انتباهي لأن زوجي من تلك المدينة.

ثم ابتسمت ابتسامة عريضة فأردفت:

ـ أو قولتا أني أنا من لم تصادف من ذي قبل شخصا من بني ملال لأني لا أخرج من البيت كثيرا، لعل زوجي التقى بالكثيرين وتحفظ على ذلك.

كان حديثها العفوي كافيا لتطمئنا لها، تبادلن التحايا والأسماء، فقالت إحداهن وكانت الأكثر تبرجا ومبالغة في الزينة:

ـ أنا اسمي نعيمة وأنا من بني ملال، أما صديقتي سعاد فهي من مدينة آسفي، سعدنا بلقائك يا حليمة.

قالت حليمة:

ـ وأنا سعيدة بلقائكن أيضا، إني أمضي الكثير من الوقت بالمنزل وكم أشتاق أحيانا لأخوض في أحاديث النسوة لأرفه عن نفسي، فرغم أني أسعد بالحديث مع زوجي إلا أنه أضحى أكثر هوسا بالقراءة والكتابة.

بدا عليهن أنهن لم يفهمن شيئا، وكأنهن يتساءلن في أنفسهن، "هل هناك رجل يكتب ويقرأ، ويضيع وقته في ذلك"، لكن حليمة أخدت عن زوجها حسن التخلص في المحادثات، وطرق تحوير الأحاديث للمجاري المناسبة، فقالت تخاطبهن:

ـ ماذا ترغبن أن تقتنين؟

ردت عليها نعيمة:

ـ نود شراء بعض الماكياج فقط.

أخدت حليمة بيدهما واستدارتا عند البائع:

ـ اسمحا لي أن أشارككما الاختيار على الأقل، لعل هذا يطفئ بعض ظمئي لتبضع أدوات الزينة، وأنا على كل حال لا أستطيع اقتناءها؟

ردت سعاد بلهجة تشوبها بعض السخرية:

ـ أنتن المتدينات لستن بحاجة لهذا.

ثم وكزت صديقتها في إشارة لها لتسرع في التخلص من هذه المرأة، لمحت حليمة وكزها لصديقتها لكنها تغاضت عن ذلك، وتذكرت قول زوجها لها يوما "إن النساء اللواتي يشعرن أنهن يفتقدن للشرف يضقن ذرعا من اللواتي يظهرن شريفات محتشمات، كبرياؤهن يتحطم بداخلهن، فكل واحدة منهن تتمنى في أعماقها أن تصير غير المرأة التي هي عليها، أن تسير في الشارع دون أن تمزقها نظرات الناس أو تسيء لها كلماتهم.

أرادت أن تطلق سراحهن لكن شيئا ما منعها، شيء لم تجد له تفسيرا، ربما تكون رغبتها في تفحص أدوات الزينة هذه وإبداء آرائها فيها، فذات يوم كانت خبيرة في هذه الأشياء...

استقبلهن البائع بابتسامة بلهاء، وكأنه يتساءل في سره عن هذا المشهد العجيب! امرأة منقبة مع امرأتين يسهل تصنيفهما ضمن فئة خاصة، وازداد عجبه عندما رأى المرأة المنقبة تختار لهن وتبرز محاسن ومساوئ هذه المستلزمات، تجرب على شفاهها بعض أحمر الشفاه تارة وعلى شفاههن تارة أخرى. أما الأصباغ فاكتفت بذكر أنواعها دون أن تنسى أن تشير لهن أن هذه منتوجات رخيصة لكنها تفي بالغرض، لم تكن دهشتهن أقل من دهشة البائع، ولا أقل من دهشة جاره الذي كان يرقب حليمة تشرح عن مستحضرات التجميل بحماس بالغ. اقتنتا أكثر مما نويتا اقتنائه، وفارقتهما حليمة وهي تقول:

ـ إني أقطن بدار المسجد، أرجو أن تقوما بزيارتي إن سنحت لكما الفرصة.

أما البائع فاستدار عند جاره قائلا:

ـ رغم غرابة هذا المشهد الذي لم تقع عليه عيني من قبل، إلا أني وددت لو كانت هذه المرأة تعمل معي، كانت لتكون بائعة ناجحة في هذا المجال..

أما جاره فذهب في رأيه مذهبا بعيدا ضمّنه حكما استخلصه مما شاهدته مقلتاه، فقال:

ـ عش يوما تسمع خبرا، لو حدثني أحد بمثل هذا لما صدقت، إياك والثقة العمياء في اللواتي يدعين الطهر هكذا.

عاد جمال إلى المنزل فألفى حليمة لم تعد بعد، أخذ مذكرته وانشغل بالكتابة منتظرا عودتها ليعدا الغذاء معا مما ستأتي به من السوق، لم يشعر بدخولها إلا وهي واقفة أمامه تنزع عباءتها وبرقعها وهي تشتكي غلاء الأسعار. والحقيقة أنها كانت تود أن تشتكي بخصوص هذا الرداء الذي تشعر أنه يفقدها أنوثتها، لكنها لا تملك الجرأة لذلك. انتزعت المذكرة من يده وارتمت بين أحضانه متذمرة من انشغاله بالقراءة والكتابة قائلة:

ـ لقد صار ما تكتبه يأخذ منك أكثر مما آخذ أنا، وإني لا أفهم يا عزيزي لم تكتب هكذا باستمرار.

ـ أكتب يا عزيزتي لأن أحداثا جديدة تطرأ على حياتنا كل يوم، سأتوقف حينما تتوقف هذه الأحداث.

ـ أخبرني بصدق هل تنقل تلك الأحداث كما هي لهذه الصفحات؟ ألا تتلاعب بها مخيلتك؟

نظر إليها مبتسما، إنها توجه له سؤالا نقديا في السرد من حيث لا تدري وأجاب:

ـ إن هناك شيئا غير المخيلة يا عزيزتي، إنها اللغة، فنحن عندما نود أن نكتب عن أحداث ووقائع حقيقية فإننا نتوسل باللغة، واللغة لا تنقل الواقع، بل إن أقصى ما تفعله أنها تقربه.

ـ عدت لفلسفتك، لم أفهم شيئا.

ـ حسنا سأعطيك مثالا، لو حدث أننا رأينا أنا وأنت حادثة في الطريق ثم أتينا جماعة من الناس وحكى كل واحد منا ما شاهده، فهل ستكون روايتينا متطابقتين كل التطابق؟ بالطبع لن تتطابقا على يا عزيزتي، بل سيظهر عليهما بعض الاختلاف في الجزئيات وإن اتفقتا في الجوهر. وما مرد ذلك إلا للغة التي عبرنا بها عن هذه الحادثة.

ـ لم يزدني كلامك إلا غموضا لأني لم يسبق لي أن فكرت في هذا، إذن هل أفهم أن وصفك لي في كتابتك هذه ليس مطابقا لي؟

ـ ليس مطابقا كل التطابق يا عزيزتي.

خشيت أن تكون الكلمات المكتوبة قد بخست من جمالها الذي تقدسه حد العبادة، فقالت مقطبة الجبين:

ـ وكيف ذلك؟

ـ إنك أجمل من أن تصفك الكلمات يا حلوتي، لذلك أحاول أن أعثر في معجمي الذهني عن كلمات تقرب من جمالك وإن عجزت عن تصويره تصويرا دقيقا.

استحسنت هذا القول وإن كانت لم تفهم بعض ما ورد فيه من قبيل المعجم الذهني، ولكنه قول يكفي ليشعرها بأنها ما تزال تنضح شبابا، انحنت إليه وقبلته بشغف قائلة:

ـ احذر أن سيمعك الناس تتكلم هكذا، فهذا لا يليق بفقيه.

انفجر ضاحكا، وقال:

ـ وهل الفقيه بلا قلب؟ إن المشاعر يا عزيزتي لا تخطىء أي إنسان. فالإنسان بعقله ومشاعره يتميز عن الحيوان فقيها كان أو زاهدا أو أحدا من الناس.

سألته حليمة عن سير الأمور بالمسجد، أرادت أن يطمئن قلبها وتدفع عنه الهواجس، فهي تعلم أن بعض الناس، أو قلة منهم يتكلمون عن جمال في الخفاء ويعارضونه لأنهم لا يوافقونه الرأي في كثير من الأمور، يريدونه متشددا وهو يأبى إلا أن يبقى معتدلا سمحا، لكنه تعمد أن يغض الطرف عن ذلك الاختلاف الذي يعرف في قرارة نفسه أنه سيتفجر في أقرب وقت، فطفق يحدثها عن

النصراني الذي أسلم بين يديه، وعن المشاعر المختلطة التي أثارها فيه هذا الحدث، فقد جاءه أحدهم من أهل البلد بصهره الفرنسي المتزوج من ابنته ليعلن إسلامه في المسجد، وبعد أن أنهى الصلاة نادى عليه جمال وسأله بفرنسية لا تشوبها شائبة:

- هل بالفعل تريد أن تعتنق الإسلام ؟
- نعم
- هل أنت مقتنع بتعاليمه؟ أم أنك اضطررت لاعتناقه نزولا عند رغبة أصهارك؟

سكت الفرنسي لبرهة واستغرق في التفكير، واشرأبت أعناق المصلين إلى جمال والفرنسي منتظرين أن ينطق النصراني الشهادتين، أما الذين في الصفوف الأولى فأنساهم رؤيتهم لجمال يتحدث الفرنسية بطلاقة ترقب حدث نطق الشهادتين. رد الفرنسي على جمال قائلا: في الحقيقة أنا لم أطلع على الإسلام ولا بحثت فيه، وإن كان عندي ميل لهذا الدين فإني إنما أعلن إسلامي بالدرجة الأولى نزولا عند رغبة زوجتي ودرء لمضايقات أهلها..

- لا بأس يا صديقي، على كل حال أنت ستعلن إسلامك بعد قليل، وسيكون جميلا لو تخلص النية ما دمت ستعتنقه، ويمكننا أن نتحدث بعد أن ننتهي مما نحن فيه وقتا أطول، هل أنت مستعد؟
- نعم.

قرب جمال مكبر الصوت منه وطلب منه أن يردد الشهادتين معه كلمة كلمة..

ما إن نطق الفرنسي بالشهادتين حتى ضج المسجد بالتصفيق، ذهل جمال من ردة فعل المصلين وطلب منهم أن يكفوا عن التصفيق وأن يكبروا، فتعالت الهتافات الله أكبر الله أكبر.. انكب المصلون على الفرنسي يقبلونه ويعانقونه، فبدا مصدوما، خاصة عندما رأى بعضهم يعانقونه ودمع غزير يسيل على خدودهم، أما جمال فلم يستسغ تصفيق المصلين بدل التكبير، إلا أنه التمس لهم العذر خاصة حينما تذكر أن من الطلبة في الجامعات من يبلغ به الحماس في الحلقيات درجة التصفيق لقرار من القرارات بدل أن يعبر بالرمز ضاربا أعراف "أوطم" عرض الحائط، فلا حرج على هؤلاء إذن مادام حتى الجامعيون يسقطون في هفوات على الشاكلة نفسها..

طلب جمال من "جيرار" أن يزوره ليتحدثا في أمور الدين، ولم تتأخر زيارته له، إذ جاء بعد أيام مع صهره وصلى المغرب مع الجماعة، رحب به جمال وتحدثا قليلا، اختفى جمال لدقائق ثم عاد وهو يحمل ترجمة القرآن والسيرة النبوية إلى الفرنسية، فمدها للفرنسي مبتسما:

- خذ، هذا قرآن مترجم، وهذه سيرة نبينا عليه الصلاة والسلام، وإني أحب أن تتعرف على الإسلام الصحيح من خلالهما، لا من خلال ما تراه أو تسمع به، وأرجو أن تبدأ القراءة في السيرة قبل

القرآن، واعلم يا صديقي أنك ستجد فرقا كبيرا بين ما ستقرأه هنا وبين ما هو موجود في الواقع.

أخذ الفرنسي الكتابين والسرور ينتابه، وانصرف مع صهره الذي يبدو أنه لم يفقه شيئا من الحديث الذي دار بين الرجلين، بعد أيام نسي فيها جمال أمر الفرنسي فقد ظنه عاد لبلده، فوجئ به يتقدم إليه بعد صلاة العشاء بابتسامة عريضة، استقبله جمال بترحاب كبير واعتبر ابتسامته بشارة خير، وبعد تبادل التحايا وبعض الجمل القصيرة قال له الفرنسي:

- هذا الرجل عجيب حقا، من أين له بهذا الخلق، وهذا الذكاء المتقد، وكل الصفات الخيرة التي لا تجتمع لبشر؟ لقد أسرتني هذه الشخصية وملكت علي كل حواسي، ولم يهدأ لي بال حتى فرغت من الكتاب على طوله، وصدق أني لم أولع بقراءة كتاب مثل ولعي بهذا الكتاب، وقد استنتجت أن أغلب ممارستكم بعيدة عما هو مكتوب هنا..
- أنت محق، فمن يقرأ سيرة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، ثم يخالط الناس بعد أن يلقي الكتاب من يديه، يشعر أنه انتقل من عالم إلى عالم آخر، وأنت بعدما تقرأ القرآن الكريم، ستزداد دهشتك، ويتبدى لك الفرق أكثر، وأرجو ألا يثنيك عن التعمق في الإسلام أكثر، ما تراه من الناس من سلوك ومعاملات، فمن الخطأ أن نحكم على الدين من خلال ممارسات المعتنقين له، "فالتدين ناقص والدين كامل"، وإن استوعبت هذه العبارة

سلمت من كل لبس قد يتبدى لك، وفهمك للدين سيحدده كم قرأت، لأن الإسلام لا تفهمه العقول الفارغة، وإن حدث أن فقهت منه شيئا، فإنها تفقهه مشوها.

سر الفرنسي بحديثه مع جمال، ووعده أن يقرأ المزيد عن هذا الدين، لكن جمال تنبه إلى انقطاعه أحيانا عن المسجد، فنبهه بطريقة لا حرج فيها إلى أنه أضحى مسلما منذ أن نطق الشهادتين، وينبغي عليه أن يواظب على الصلاة، احتج جيرار بان القراءة شغلته عن تأدية الصلاة، فشرح له جمال أن الصلاة فريضة على كل مسلم، ولا ينبغي أن تلهيه عنها تجارة ولا قراءة، حرك الفرنسي رأسه دلالة على الفهم، وهما معا بالانصراف، فقال له جمال:

- سأخبرك سرا يا صديقي، ستجد في الصلاة إذا أديتها بخشوع طمأنينة كنت لتغادر هذه الحياة ذات يوم دون أن تصيب منها حظا،
- أذاك ما قصده النبي بقوله لابن رباح : أرحنا بها يا بلال ؟

اندهش جمال من إجابة الفرنسي، يبدو أنه قرأ كثيرا خلال هذه الأيام فعلا. وما زاد على أن ربت على كتفه وقال : ما شاء الله، إنك رجل جدير بالاحترام والتقدير، ومنذ ذلك اليوم جمعتهما صداقة نبيلة، دارت بينهما مناقشات مفيدة في أمور الدين حتى أن جيرار كان يصدم جمال أحيانا بمعلومات لم يتح له الاطلاع عليها، لكن تلك المناقشات كانت تسعد جمال وتترك في نفسه أثرا طيبا، ولم يغادر

الفرنسي إلى بلاده إلا وهو أفقه في الدين من بعض من ورثوا الإسلام من آبائهم في كثير من الأمور..

3

مرت نعيمة بالقرب من المسجد مصادفة، فتذكرت حليمة، ترددت في الإقدام على هذه الزيارة. ربما لم تر نفسها أهلا لدخول منزل الإمام بكل زينتها وتبرجها الفاضح. لكنها حسمت ترددها فاتجهت صوب المنزل، طرقت على الباب طرقا خفيفا. وبعد لحظة فتحت حليمة الباب، واندهشت اندهاشا كبيرا، إذ لم تتوقع مثل هذه الزيارة. لاحظت نعيمة ما بدا عليها من اندهاش فبادرتها قائلة:

ـ كنت مارة بالقرب من المسجد ففكرت بإلقاء التحية عليك؟ أرجو أني لم أتسبب لك في أي إزعاج.

ولتخفي حليمة دهشتها احتضنتها مرحبة بها أيما ترحيب، ودعتها للدخول، لكن نعيمة أبدت بعض الرفض وادعت العجلة... ففطنت حليمة إلى ما بها من حرج فأردفت تقول:

- ادخلي، زوجي ليس بالمنزل، لقد جئت في الوقت المناسب، لأني كنت أعاني فراغا كبيرا، فزوجي مدعو لوليمة ولن يعود باكرا.

ابتسمت نعيمة وسارت وراءها نحو الصالون الصغير، وقبل أن تجلسا قالت لها حليمة بكل عفوية كأنهما تعرفان بعضهما منذ زمن، وتتبادلان الزيارات لوقت ليس باليسير:

ـ تعالي معي لغرفة النوم، ينبغي أن أتم إصلاح بعض الملابس وطيها.

تبعتها نعيمة ودلفتا إلى غرفة النوم، أدهشها الترتيب الحسن للغرفة وديكوراتها، أو لعل الغرفة لم تكن بكل ذلك الجمال الذي تخيلته نعيمة. ربما حلمها بغرفة نوم مشابهة تجمعها برجل تحبه هو الذي صور لها الأشياء أجمل مما هي عليه. وهي تجول بعينها الفضوليتين في أنحاء الغرفة لاحظت صورة لحليمة مع رجل بلحية خفيفة، تجمدت في مكانها وظلت تحملق في الصورة غير مصدقة لما تراه، لوهلة كادت تكذب ما تبصره فاقتربت من الصورة وتفرست فيها تأبى تصديق ما تراه. لاحظت حليمة تفرسها في الصورة وأرادت أن تجلي غموضها فقالت بنبرة لا تخلو من بعض التفاخر:

ـ هذا زوجي جمال، التقطنا هذه الصورة حينما وفدنا لهذه المدينة، كان بلحية خفيفة آنذاك. أما الآن فهو بلحية كثيفة، لم أعتد على لحيته هذه إلا بصعوبة كبيرة...

ـ هل تقولين إن هذا زوجك؟

نعم؟

ـ متى تزوجتما؟ وكيف ذلك؟ غير معقول. هل تقولين إن جمال هو إمام المسجد؟

انقبض قلب حليمة وشعرت أن هناك خطبا ما. فقالت:

ـ ما الداعي لكل هذا الاستغراب؟ هل تعرفين جمال؟

ـ لا أدري! إني لم أعد أدري حقا! هل هذا جمال الذي كنت أعرفه أم أنه شخص آخر ! اسمحي لي بالمغادرة يا حليمة، يجب أن أرحل قبل

مجيء زوجك، إذ ليس من الصواب أن يجدني عندك، أو أن يراك تصادقين أمثالي، فتأبطت حقيبتها وهمت بالمغادرة..

ـ انتظري يا نعيمة، أخبريني ماذا تعرفين عن جمال؟ ومتى عرفته ؟

ـ ينبغي أن أغادر يا حليمة، قد يأتي زوجك في أي لحظة.

ـ أتوسل إليك أن تحدثيني بما تعرفينه عن جمال، فإني لا أعرف عنه غير اسمه وشخصه..

بدت صادقة في توسلاتها، ربما آن الوقت لتعرف ماضي الرجل الذي عاشت وتعيش معه، وربما آن الوقت الذي تخمد فيه النار التي يوقدها في فكرها غموضه... شعرت نعيمة بصدق توسلاتها مدفوعة برغبة الحكي الذي تتقنه النساء وقررت أن ترحمها وأن تخبرها بكل ما تعرفه، أو ربما ودت هي أيضا أن تعرف كيف صار جمال إماما وخطيبا في الناس فلطالما أزعجها غموضه هي أيضا. قالت لحليمة بنبرة حاسمة لا تقبل التفاوض:

ـ أنا أسكن قرب البريد وهذا رقمي هاتفي، زوريني في بيتي إن شئت فأحدثك بما تريدين. وانصرفت على عجل. تركت الباب مشرعا أما حليمة فانكفأت على نفسها ووضعت كفها على فمها وشرعت تبكي... فقدت السيطرة على أحاسيسها، فتلاطمت بداخلها محدثة فوضى كبيرة. أخذ قلبها يخفق بغير انتظام، وأفكارها يتقاذف بعضها بعضا، فكرت:

ـ ما هذا الذي يحدث معي يا رب؟ أي امتحان هذا الذي تضعني فيه؟ إني لا أدري حتى لما أريد أن أعرف ماضيه؟ كل شيء محتمل! ربما من الصواب ألا أعرف هذا الماضي، ربما تعمد هو ألا أعرفه رحمة بي؟ إني أثق به وأعرف أنه يهتم لحالي كل الاهتمام، لكني أريد أن أعرف. عذبتني هذه الرغبة وما تزال، أن تعيش مع إنسان تحبه لدرجة الجنون، وتجهل عنه كل شيء، لشيء صعب. إن الماضي هو ثمرة المستقبل، وجزء من تكوين الإنسان في هذا المستقبل. أو كما قال لي جمال ذات يوم:

ـ إن من يبتر ماضيه لحاجة في نفسه كمن يبتر عضوا من جسده، يظل يشعر بهذا العضو، ويتوهم وجوده، لكنه في الواقع لا وجود له إلا في عقله.

وإن هذا أشد ما يعذبني، لأني أحب أن أشاركه كل شيء. حتى هذا الماضي المبتور الذي بلا ريب ما يزال يتوهم وجوده... إنها المرة الأولى التي أتريث فيها في اتخاد قرار، وأمعن التفكير. لكني على أي حال من حقي أن أعرف ماضي الرجل الذي أحبه، وإن أعقب ذلك ما لا تحمد عقباه. لا ينبغي أن أعمل العقل، ماذا لو اتبعت الفضول الأعمى وخسرت؟ تلك ستكون قاصمة الظهر لي. لم أعد قادرة على خسارة ولو شيء بسيط، خسرت ابنتي ذات يوم بقرار طائش. فهل أمتلك القدرة على خسارة هذا الرجل الذي سقاني من جداول قلبه حبا كثيرا؟؟

لم تشعر حليمة إلا وجمال منتصب بباب الغرفة يتأملها. تنبهت إلى وجوده ووجلت، وحاولت أن تخفي مشاعرها وتصطنع الهدوء:

ـ عدت مبكرا؟

ـ نعم، ما بك؟

ـ لا شيء.

ـ وأثر الدموع ؟ والباب المشرع على مصراعيه ؟

تستطيع أن توهمه في دموعها، لكن الباب بم ستفسر ذلك؟ لا تستطيع إخباره بزيارة نعيمة.

ـ نسيت إغلاقه بعدما عدت من عند البقال، أما الدموع فإنك تعرف أني كثيرة البكاء...

ـ وبم تفسرين هذا الاضطراب الذي يعصف بك؟ هل تخفين عني شيئا؟ ماذا تخفين عني يا حليمة؟

ـ لا شيء يا عزيزي، أرجو أن تسامحني على خطئي...

قبل أن يتوجه جمال لصلاة العصر أخبرته حليمة أنها ستخرج لتتبضع بعض الأشياء، وتوجهت عند نعيمة مدفوعة بحب الاكتشاف، انتابها شعور بالارتياح عندما وجدت نعيمة لوحدها في غرفتها لم تطق صبرا حتى تحدث لها نعيمة من أمر جمال ذكرا، فابتدرتها قائلة:

حدثيني بما تعرفين يا نعيمة؟ بكل شيء.

ـ إني لا أعلم عن طفولته شيئا ذا بال، كان أول لقائي به هو ضمن تلك الجماعة التي كانت تجمعنا.

شعرت نعيمة بما يشبه انتشاء العارف، راقها احتياج حليمة لها، وسولت لها نفسها أن تتماطل في التخلص للغرض المقصود، فقررت أن تسرد حكايتها أولا حتى تتلذذ بالتلاعب على أعصاب حليمة، تنهدت وشرعت تقول:

- اسمحي لي أولا أن أعطيك نبذة عن هذه الجماعة، ولأفعل ذلك فلابد أن أقص عليك حكايتي ما دمت فردا من هذه الجماعة.

أحست حليمة بضيق كتمته بحذق شديد، وقالت لنعيمة تفضلي كلي آذان صاغية.

- لا أعرف من أين أبدأ حديثي، لكن فلأحدثك أولا عن الظروف التي ساقتني للانتماء لأولئك الرفقة، منذ أن بدأت أعي العالم، اكتشفت أني بلا أب، كانت والدتي تطمئنني أن والدي غادرنا وأنا صغيرة يوم ولدت أختي الثانية وحكت لي قصصا كثيرة عن مجونه وعربدته وضيقه من المسؤولية الملقاة على عاتقه، لكني بعدما بلغت الثالثة عشرة، ولد لي أخ من المجهول، وكان ذلك كافيا لأشكك في كل روايات أمي، تقبلت فكرة أني لقيطة بدون أن ينتابني أي ألم. كنت قد نشأت تنشئة تكسب صاحبها قوة وصلابة تحميه من الصدمات، لم أحدث والدتي عن الأمر يوما، تغاضيت كما تغاضت هي الأخرى عن أخي الجديد، لم يكن هناك من شيء يحتاج للشرح، وبحلولي

عامي الرابع عشر ساقتني والدتي للمدينة ودفعت بي للاشتغال في البيوت قبل أن يستقر بي الحال عند صاحب مطعم أنظف الصحون، انبهرت بالمدينة رغم كل العذابات التي كنت ألاقيها، كنت مستعدة لأتعذب أكثر مقابل المكوث بالمدينة التي سحرني صخبها ونمط عيشها، وكذلك فعلت.

أحنت نعيمة هامتها وكأنها تحاول استرجاع بعض الأحداث، أما حليمة فانصهرت في قصة نعيمة وتناست أنها إنما جاءت لتسمع قصة جمال، قلبها الحنون يتأثر بالمآسي الإنسانية أشد التأثر ربما يرجع ذلك لأنها خبرت المآسي وتلظت بنيرانها، شملتها حليمة بنظرة عطف لا تكاد تخلو من إشفاق، وقالت لها بصوت يدعو للطمأنينة.

- ماذا حدث بعد ذلك يا نعيمة؟
- إن ما حدث بعد ذلك هو ما صيرني هكذا، كنت طائشة كل الطيش، أردت أن ألهو وأستمتع بحياتي، وبدل أن ألهو مع من هم في سني كما تفعل كل البنات أخطأت الوجهة ولهوت مع من هم أكبر مني سنا فلقيت من ذلك نصبا. كان صاحب المطعم يستعين بي في توزيع الوجبات على الزبائن حينما يكثرون، وكنت أسعد بذلك لأنه يتيح لي الاختلاط بالناس بدل الصحون، لم أرسم لنفسي حدودا تقيني شر الناس، بل كنت أبتسم للكل، وأبتسم ابتسامات لا تخلو من إغواء للشباب الذين في تقاسيمهم بعض لمحات الحسن والجمال، وكان ممن يرتاد المطعم شاب وسيم يجيء لتناول الغذاء كل يوم بانتظام وحدست أنه يعمل بمكان قريب، وقد أعجبت به من أول نظرة.

إعجاب تحول إلى هوس مع مرور الأيام لدرجة كنت أوشك فيها على الجنون حينما أبقى حبيسة المطبخ، وذات يوم عندما أغلقنا أبواب المطعم استأذنت صاحبه في أن أتوجه لوسط المدينة لأتبضع بعض الحاجيات، أذن لي بعد تأكيدات كثيرة على العودة باكرا وإحكام إغلاق المطعم، سررت بهذا القدر الصغير من الحرية وانطلقت كالسهم أجول شوارع المدينة، آه يا حليمة كم أحب شوارع تلك المدينة ليلا، قادتني خطواتي لحديقة تامكنونت، تجولت بداخلها دون أن أتخذ لنفسي مقعدا فأغلب المقاعد يحتلها عشاق من مختلف الأعمار، وإن كان الشباب هم الكثر، بلغت تلك البحيرة المصطنعة، وقفت أتأملها، أو قل أني كنت أنظر إلى الفراغ فقد كنت شاردة الذهن، أحسست بيد تلامس كتفي فانتفضت، استدرت فشعرت بقلبي قد توقف عن النبض، كان هو ! تفحصني بنظره مبتسما وقال كأننا تحدثنا آلاف المرات أو كانت بيننا ألاف اللقاءات.

- هل أخفتك؟
- كنت يومها ما زلت أعرف ما هو الخجل، وكطفلة صغيرة أحنيت رأسي وأنا أداري ابتسامة الفرح التي تكاد تنفلت مني بكل قوة.. أمسك بيدي قائلا بكل هدوء، فلنتمشى قليلا، فتبعته بكل خنوع. كانت تلك سقطتي الأولى في الحياة.

كان بإمكان حليمة أن تتصور بقية القصة، لكنها أحبت أن تسمعها من صاحبتها، فلسبب لا تعلمه، تريد أن تسمع البقية ربما لأن قصتها وقصة

نعيمة أريقت فيهما الدماء التي تفقد المرأة شرفها، شرف لا يتساهل الناس فيه، ويحاسبون عليه حسابا شديدا. عادت نعيمة للكلام المباح :

- تحدث كثيرا ونحن نمشي، ولم أكن أرد إلا بكلمات مقتضبة، ظل يمسك بيدي دون أن يفلتها ولو مرة، ولم أشعر إلا ونحن في زقاق بأحد الأحياء الشعبية، قلت له: أين نحن؟ كنت كالمنومة مغناطيسيا، قال لي بنبرة آمرة لكن فيها بعض الرجاء:
- أريد أن تشاركيني وجبة العشاء، أنا أسكن لوحدي، سيسعدني استضافتك كثيرا.

سيسعده مشاركتي إياه العشاء، غلبت رغبتي في إسعاده كل مخاوفي، وأومأت له بالموافقة، أشار إلي أن أتبعه مع الحرص على بقاء مسافة بيننا، استجبت في خضوع العبيد وتبعته، وقف أمام إحدى الدور العتيقة في الزقاق، وفتح الباب وأشار إلي بالدخول وراءه، وكذلك فعلت، ما إن وقفت في فناء المنزل حتى خفق قلبي خفقانا شديدا، كانت بعض الغرف الأخرى مضاءة الأنوار وتتناهى إلى مسامعي من وراء أبوابها بعض الأصوات، عرفت أنه يؤجر غرفة فقط، تخطفني كالبرق إلى غرفته وأوصد الباب بإحكام، طلب مني الجلوس وحاول أن يبث في قلبي المذعور بعض الأمان بابتساماته الساحرة، استلقى في مكانه وأشار إلي أن أستلقي بجانبه، ترددت في فعل ذلك لكنه جذبني إليه وضمني بكل قوة ضمة أخذ مني بعدها كل شيء بعد مقاومة كبيرة... بعدها صرت إنسانة أخرى، مكثت مع والدتي عدة شهور إلى أن تعرفت على ميكانيكي يلقبونه بعنترة أنفقت معه شهورا سوداء، وذات يوم ونحن جلوس في بستان وارف

الظلال وبجانبنا ساقية كثيرة الماء مر بنا رجل يعرف عنترة، وجلس معنا بعض الوقت وكانت أحاديثه عذبة جدا، وكانت تزداد عذوبة كلما جرع كأسا، انجذبت لكل شيء فيه رغم أنه كان يفوقني عمرا، ولو أني عرفت أبي لقلت أنه في عمره.

تفحص عنترة علبة السجائر فإذا هي فارغة، وكان مدخنا شرها، لم يكن له بد من أن يقصد دكانا يتزود منه بما يحتاجه، نهض من مكانه وطلب مني أن أتحدث إليه على انفراد فاستجبت له، دنا من أذني وهمس لي قائلا:

- احتاطي منه، لا أثق به البتة.

كان هذا أغبى شيء أسمعه منه، نسي أن تحذيره هذا سيدفعني قدما لاكتشاف الرجل، عدت لمكاني واصطنعت الوقار، وقام سعيد، هذا هو اسمه ليستحم في الساقية متذرعا بالحر، نزع ملابسه وأبقى على اللباس الداخلي، فتنني جسده، كان أشبه بالأبطال الرياضيين، جسد متناسق لا ترهل فيه ولا عوج، كنت أنظر إليه نظرات خاطفة من حيث لا يدري، لم يستغرق وقتا كثيرا في استحمامه، ارتدى ملابسه، وتوجه إلي طأطأت رأسي كأني أتجاهل وجوده، وضع كفه الناعم على وجهي رفعت نظري إليه، ما إن تلاقت نظراتنا حتى شعرت أني بحاجة لمثل ذلك الرجل، أيقظ بداخلي أحاسيس لا عهد لي بها، ، قبلني من وجنتي وقال:

- غدا نلتقي في هذا المكان وفي الوقت نفسه.

أردت أن أتكلم فوضع سبابته على شفتي وقال وهو ينصرف:

- لا تقولي شيئا، سأكون بانتظارك.

اختلقت الكثير من الأعذار لأغيب عن عنترة في اليوم الموالي، وساقتني قدماي لمكان اللقاء، ألفيته قد سبقني وقيثارته بجانبه، ألقيت التحية عليه، فرد بأحسن منها، أمسك بيدي وأخذني معه إلى منزله، أو إلى منزلي كما كان يحلو لي أن أسميه، لا أدري كيف أصف لك يا حليمة العلاقة بين صبية طائشة جاهلة بأمور الحياة، ورجل في الأربعين يخيل للإنسان أنه خبر كل شيء..

كان يمضي أياما في القراءة والشرب فقط، حتى أنه إن جاز أن يكون له شعار فهو: "القراءة والخمر والمرأة". وقد تعمدت أن أصطنع هذا الترتيب، فقد كانت القراءة عنده في المرتبة الأولى ثم يليها الخمر ثم المرأة. هذه لذات كلها كانت تؤطر حياته... أحببته من حيث لا أدري! أحببته لدرجة شاركته في إحدى لذاته وهي الخمر وعجزت في مشاركته لذته الأولى على الدوام، وكان لسعيد صحبة يشاركونه مجلسه، وهم ثلاثة أفراد: صديقان دائما الحضور معه، والثالث من ذوي قرباه وهو زوجك جمال... ذات يوم وأنا حديثة العهد في علاقتي بسعيد كنا جلوسا على ضفة الوادي أنا وسعيد وصديقاه، كان سعيد يعزف ألحانا جميلة على قيثارته وصديقاه يوزعان الأقداح بانتظام. عندما أنهى سعيد عزفه بدا وكأنه تذكر شيئا! فأخرج هاتفه من جيبه وأجرى اتصالا بشخص ما مذكرا إياه أن اليوم هو يوم السبت، وعاتبه على تغيبه عن المجلس. أنهى المكالمة ونظر إلى عزيز وقال:

ـ ما بال جمال صار لا يحضر إلا إذا هاتفناه؟

أطلق سعيد ضحكة لا تخلو من العبث وأضاف:

ـ لعله يتذرع بالامتحانات كعادته.

ولأني كنت حديثة العهد بهذا العالم، انتابني الفضول حول هذا الشخص الرابع الذي يلحون على حضوره. مرت ساعتان بين لهو وعبث وعزف وتنكيث. وإذا بفتى يتجه نحونا له هيئة الطلاب، تتدلى من كتفه محفظة، وابتسامة تعلو محياه، هلل الثلاثة لحضوره واستقبلوه بحفاوة كضيف عزيز. مباشرة مرر له عزيز كأسا مملوءة عن آخرها كأنه قصد بها أن يعوضه عما فاته، أفرغها دفعتين في جوفه لتعلو الحمرة وجنتاه...

نظر إلي نظرة متفحصة ثم قال موجها كلامه لسعيد:

ـ من هذه الجميلة التي تنير المجلس؟

ضمني سعيد إليه بكل فخر:

ـ إنها حبيبتي وقرة عيني.

قام جمال من مكانه وقبلني على وجنتي وقال:

ـ إنها قرة عين حقا.

استغربت وامتعضت من هذه الجرأة، وأحس سعيد بما انتابني من انفعال، فهمس في أذني أني أستطيع أن أخاف من الكل والتزم منهم الحذر إلا جمال، فهو من أهل الثقة والأمانة. استمر القوم يتجرعون الكؤوس واحدة تلوى الأخرى، وألحان شجية تنبعث من القيثارة بأنامل سعيد تارة وأنامل جمال تارة أخرى.

ـ هل تقولين إن جمال يعزف على القيثارة؟؟!

ـ نعم، ألم يخبرك يوما بذلك؟

ـ لا، صدقي أني أجهل عنه كل شيء.

ـ إن له عزفا شجيا، وما أكثر الأحيان التي أبكى فيها المستمعين بألحانه ورقة كلماته.

ـ إني أكاد لا أصدق أن جمال كان ممن يواقعون عسيلات الحياة بهذا الشكل!

ـ انتظري قليلا لأعد كأسا من الشاي، فنحن ما زلنا في بداية الحكاية.

ـ لا، أرجوك يا نعيمة، لا أريد أن أشرب شيئا، فقط أكملي، أريد أن أسمع المزيد.

ـ كان ذلك لقائي الأول بجمال على ضفة ذلك الوادي، وعندما فرغنا من الشرب، بل الأحرى نفذ ما كان معنا من خمر، قمنا من مجلسنا، وقد أدهشني أن الكل قام دون أن ينتبه لما قد يكون ضاع منه، وفهمت بعد ذلك أنهم يعتمدون على جمال في حراسة أغراضهم وجمعها، فقد أخبرني سعيد تلك الليلة أن جمال وحده من بينهم الذي يحافظ على توازنه وإن شرب أضعاف ما شربوه، كما حدثني عنه باقتضاب بعدما ألححت عليه. أردت أن أعرف سر اهتمامهم بهذا الفتى اليافع وهم الطاعنون في السن. فأخبرني أن جمال مر بحوادث أليمة في حياته، وسكت عن هذه الحوادث، وأنهم إنما يحاولون أن يرفهوا عنه، كما عدد لي الكثير من مزاياه، فهو عازف خبير بألة

القيثارة، وذو أحاديث عذبة في الأدب، وكم أصابوا من لذة عظيمة وهم يتناقشون معه شؤون الأدب والفن، كما أنهم لا يخشون ضياع شيء منهم حينما يكون برفقتهم، بل إنه أحيانا كثيرة قد يبلغ من المروءة شأوا عظيما، فيأخذ كل واحد منهم حتى مسكنه في لحظات شربهم المفرط.

تكررت لقاءات كثيرة بيننا خصوصا أيام السبت والآحاد، لأنها كانت أيام عطلة بالنسبة لجمال، وإن كنت تعلمت شيئا فإني قد تعلمت ألا أتوجه لجمال بسؤال مباشر خاصة فيما تعلق بحياته... لكن لأكون صادقة فقد أحببته أنا أيضا، أحببته كأخ لم تلده أمي، فقد كان مهذبا لحد كبير. لم ينكر علي يوما ما أفعله، ولطالما التمس لي العذر في كل خطاياي التي كانت تعذبني، إني أتذكر الكثير من أحاديثنا معا على انفراد، إذ كان يحدث أن يكون سعيد خارج البيت وننفرد ببعضنا. كانت أحاديثنا كلها مليئة بالأمل وبالكثير من العاطفة، وما تذكرت يوما أنه أساء إلي أو راودته نفسه صوبي، كان من ذلك النوع الذي تشعر بالطمأنينة معه ولعله ما يزال!

لا أريد أن أقف معك عند كل التفاصيل، لأنها متشابهة في الغالب من الأحيان. وأذهب بك مباشرة إلى يوم تخرجه من سلك الإجازة، حينما أقام خلانه حفلة كبيرة على شرفه، حفلة شاركت أنا أيضا في الإعداد لها، وقد اتفقوا على أن يضفوا لمسة جديدة على مجلسهم فعهدوا إلي بمهمة أن آتي لجمال بفتاة اشترطوا فيها أن تكون جميلة مرحة كل المرح... ليفاجئوه بها.

أنهينا الإعداد للحفلة، بحلول المساء كان كل شيء جاهزا، وجاء جمال وكله حبور وسرور لنجاحه، واستقبلناه هاشين في وجهه، واستقبلته الفتاة التي هي ملك له منذ تلك اللحظة إلى حدود الصباح ببشاشة أيضا، إذ كانت تعرف سبب الاحتفال. اتخذنا أماكننا وعجل في ملء الأقداح، فتعالت الأصوات واستبدت الألحان بالفضاء، كانت ليلة خالدة في الذاكرة مرت كلها بسلام. كان جمال حتى في لحظات سكره أرجح عقلا حتى أنه لم يتجرأ على افتحاص ذلك الجسد الذي هو ملك له تلك الليلة أمامنا كما يفعل أكثر الرجال، بل اكتفى بالحديث والمناقشة فقط. وحينما بلغت الساعة الثانية عشر ليلا، كان التعب قد استبد بالجميع وأنهكت قواهم، فغادر عزيز وصلاح وهما يترنحان ويتمتمان بكلام غير مفهوم، قمت أنا وسعيد لغرفتنا لننام، وظل جمال مع الهدية التي أهديت له بمناسبة نجاحه. وفي الصباح تناولنا الفطور معا، ورافقت سعاد لتستقل سيارة تأخذها إلى منزلها، وما إن تجاوزنا عتبة الباب حتى سألتني بفضول كبير عن جمال:

ـ هل هو مجنون أم به عجز ما!

قلت لها:

ـ لم تقولين هذا؟ ألم يرضيك البارحة؟

ـ بل إنه لم يلمسني حتى؟ كان يطرح علي أسئلة غريبة، كأنه طبيب نفسي أو عالم اجتماع؟

ـ هذا أمر غريب؟ لكن أؤكد لك أن لا عجز به. إنه أمر مستبعد

ـ استغرابي أشد من استغرابك، هذه أول مرة أشهد مثل هذا الحدث.

استغربت كيف لفتى يافع ينضح شبابا أن يزهد في فتاة تقضي الليل معه! وعندما عدت سألت سعيد عن هذه الحالة الشاذة عندما اختليت به، فما كان منه إلا أن ضحك حتى ظهرت نواجده، لم تظهر عليه أي علامات للدهشة أو الاستغراب فقال:

ـ كنت أعرف أنه لن يقربها يا حبيبتي، لكني لم أتوقع أن يحافظ على مبادئه حتى في ليلة الاحتفال بنجاحه.

ـ أي مبادئ تقصد؟

ـ إن جمال يرى أن بائعات الهوى أو عاملات الجنس كما يحب أن يسميهن، مسكينات، هن أحوج إلى الشفقة والرأفة لا المضاجعة. فهو يظن أن أغلبهن إنما تجبرهن الظروف على بيع أجسادهن، لا البحث عن المتعة، بدليل أنه لو خيرت إحدى هذه المومسات بين أن تقبض أجرها دون أن تضاجَع، أو بينهما معا، لاختارت الأجر فقط. أما بالنسبة للأسئلة الغريبة التي قد تكون سعاد أخبرتك أنه طرحها عليها، فإن لها ما يبررها، فجمال مأخوذ بعلم النفس والفلسفة، وهو كثيرا المطالعة فيهما ويحب أن يعرف كيف يشعر الناس، ولما يقدمون على بعض الاختيارات كرها، وفوق كل شيء يا حبيبتي فجمال عنده امرأة يحبها حبا جما، ويعتقد أن خيانتها خيانة لنفسه

ولمبادئه، وحبيبته غادة جميلة صبوحة الوجه، رشيقة القد، باسمة الثغر، بهية الطلعة، تعشق العلم وتكد في سبيله كدها في الحب..

سألته لما لم تحضر معه من قبل، ووددت لو أرى هذه المرأة التي تجعل رجلا يخلص لها لهذه الدرجة حتى يصير كالناسك زاهدا فيما أتيح له من أجساد غضة، فليس من اليسير أن تعثر على امرأة تكبل ذلك الوحش الخفي في رجلها، وتجعله عبدا في طاعتها. أخبرني سعيد أنها جاءت ذات يوم وحضرت إرضاء لجمال، إلا أنها لم تطق أن تحضر مرة أخرى..

ـ يبدو أني أزعجتك بحديثي عن هذه الفتاة التي لم أحظ بشرف مقابلتها وأنا آسفة، بوسعي أن أغيبها في حديثي إن شئت يا حليمة؟

ـ لا، أرجوك تحدثي فقط؟ إني محتاجة لمعرفة كل شيء، وإن كان فيه بعض الألم.

ـ قضى معنا جمال الصيف كله، وبعد انقضائه اختفى من مجلسنا، فعلمت أنه نجح في الولوج إلى سلك الماستر بفاس. ولم نره منذئذ إلا بعد انتهاء الموسم الدراسي، وإن غاب عنا شخصه إلا أن الجماعة كانت تتصل به هاتفيا كلما لعبت الخمرة بعقولهم واشتاقوا إليه. وقد لاحظت كما لاحظ الجميع أن الفتى طفق يتغير مع كل اتصال، كانت ضحكاته تخفت وكلامه يقل، مرت أشهر دونه، وفوجئنا به ذات يوم في شهر يوليوز ينضم إلينا على ضفة الوادي، إذ لم يكن من العسير عليه أن يعثر علينا، ألقى علينا تحيات حارة حتى أنه ضمنا واحدا

واحدا، كان على محياه سرور كبير كمغترب يعود إلى وطنه.. لاحظ الجميع أن بعض التغيرات طرأت عليه، أضحت لديه لحية خفيفة قصت بعناية كبيرة، مددت له الكأس التي بيدي لكنه ردها وامتنع عن أخذها وهو الذي كان يتجرع أول كأس تقدم إليه، نظر بعضنا إلى بعض بشيء من الإنكار، لكنه انتشلنا من هذا الذهول بصوت هادئ متزن:

ـ لم أعد أشرب، لكني سعيد بوجودي معكم، آه لو تدرون كم اشتقت إليكم..

أصابنا شيء أشبه بالخيبة، وفتر حماسنا فالتزم الجميع الصمت، مع أنه أصغر منهم سنا إلا أنهم كانوا يخشون مناقشته في المسائل التي تخصه... وليكسر هذه الرتابة تناول قيثارته وعزف لحنا حزينا، حدس سعيد الذي هو أقرب الناس إليه أن في قلبه ألما وحزنا عميقا فتناول القنينة وحاول أن يصطنع ما كنا فيه من أجواء...

بعد ذلك اللقاء، جمعتنا به بعض اللقاءات الأخرى وأقول بعض، لأنه لم يكن يحرص على الحضور دائما، بل كان يحضر أحيانا ويتخلف أحيانا أخرى. لعله أمسى يستثقل تلك الأجواء لأنه كان يشعر أنه العاقل الوحيد بين الجماعة.. وذات يوم من شهر شتنبر طال غيابه وعندما سألنا عنه أخبرنا سعيد أنه عاد إلى فاس، عاد دون أن يودعنا حتى. وبعد انقضاء ذلك العام، حصل على شهادته، ولم نحتفل به هذه المرة إذ عاد غريبا عنا كلية. صار أكثر هدوء من ذي قبل، لا يتكلم إلا عند الحاجة بكلمات مقتضبة فقط، وفي عينيه الكثير من

الحزن الذي لا يخفى عمن كابده، بل حتى على من لم يكابده، يجلس معنا شاخصا ببصره إلى السماء، وقد يحدث أن تلقي إليه حديثا فلا ينتبه إلى ذلك... كان سعيد فقط من يعرف ما يقاسيه، لذلك كان يتلطف به، ويوصي بعدم إزعاجه. أي شيء قد يصنع بفتى مرح هيكلا بدون روح هكذا، سألت سعيد لعله يسر لي بحال الفتى، لكنه أبى وامتنع خشية أن يضيع السر الذي ائتمن عليه، لكن إلحاحي كان أكبر من حرصه، فحدثني عما طرأ على جمال، وأخذ مني موثقا ألا أفشي سره. ولست أدري هل أخون هذا الموثق أم لا؟

ـ بل انقضيه يا نعيمة، وحدثيني بما تعرفينه ولن أنسى لك صنيعك أبدا.

ـ أخبرني سعيد أنه بعدما سافر جمال إلى فاس لاستكمال دراسته، ظلت حبيبته في بني ملال تدرس في مدرسة خاصة بعدما لم توفق في مباراة الماستر، ولأنه لم يراها لعام كامل فقد آلمها ذلك، لم تكن من النوع الذي تطفئ المكالمات الهاتفية شوقها. كانت محتاجة إليه بجانبها، تراه وقتما شاءت، وتمسح بكفها على أديمه كما اعتادت أن تفعل. ولم يكن جمال من النوع الذي يتيسر له السفر وقتما شاء، إذ كان معدما يكدح كدحا ليحقق أحلامه، كان به شوق عظيم هو أيضا، لكن ظروفه المادية حالت دون أن يطفئ ما يتأجج به صدره بلقاء أنى شاء. فرغم أن سعيد كان يرسل إليه أحيانا بعض المال الذي لا يقبله منه إلا على مضض، إلا أن لا أحد كان يعرف كيف كان يتدبر أمره في تلك المدينة، وقبل أن يأذن العام الثاني بالانتهاء بلغه أن

حبيبته تزوجت. كانت تلك قاصمة الظهر بالنسبة إليه، صار حطاما تذروه الرياح... لكنه كان ذا قدرة عظيمة على تحمل المشاق والألم وكأن قلبه اعتاد الألم. لم ينته الصيف بحره اللافح حتى كانت البشرى لجمال، لقد توظف، صار أستاذا. استفاد من توظيف مباشر بعد نضال قصير أمام البرلمان.

هل بقي جمال كما كان؟ نعم بقي مكسورا، حزين العينين، وقد انقلب عزوفه عن مجلسنا إلى حضور دائم كلما وجد إلى ذلك سبيلا، يمازحنا بشيء من التصنع، وأحيانا قد يستبد به ضحك هستيري لدرجة لافتة للانتباه. إلا أنه لم يصب قدحا في جوفه أبدا، كان ينفق علينا بسخاء كبير، حتى أن سعيد نهاه عن ذلك الإسراف الذي لن يعود عليه بطائل، لكن جمال نظر إليه وابتسم، ثم قال:

ـ إني أدين لك بالكثير يا سعيد، بل إني أدين لكم جميعا بما لن أوفيه لكم مهما أنفقت من دراهم معدودات..

تحسن حاله ولم تعد به خصاصة، كان يخصص نصيبا من أجرته لنفسه ونصيبا لأسرته والباقي ينفقه حسب ما اتفق. لكن هذه الحالة الجديدة لم تشف قلبه العليل المنكسر، ظلت تلك الفتاة الجامعية متربعة على عرش قلبه. ولم يعد يتحرج من مضاجعة امرأة غيرها، لذا كان في كل مرة يحضر معه امرأة جديدة. وكان أغرب ما سمعته من سعيد أنه لم يكن يضاجعهن كلهن، بل كان يستثني كل واحدة زل لسانه فنادى عليها باسم حبيبته السابقة.

ـ الآن فهمت.

ـ ماذا فهمت يا حليمة؟

ـ فهمت لم كان يناديني أحيانا باسم آخر عندما يكون بين ذراعي..

إني لم أر رجلا أسف على فقدان امرأة أسف جمال على فقدان تلك الغادة، وأصدقك القول أني تمنيت أن أحظى برجل يحبني بذلك الشكل، وأي امرأة لن تكون محظوظة برجل يحب لدرجة يذرف فيها دموعا كثيرة في سبيل معشوقته... لقد ذرف دمعا كثيرا حتى بكينا معه أحيانا، فقد كان كلما أمسك القيثارة إلا وعزف عليها ألحانا رقيقة تلامس القلب، وهو يغني قصيدته التي ألفها فيها: "باعوك يا ملاك... خانوك يا ملاك"

حتى أنه صار كلما تناول القيثارة انتزعناها منه، حتى لا يفسد فرحتنا بالدموع، فقد صار لا يتقن إلا عزف تلك المقطوعة.

لم أحدثك عن عمله، لأني لا أعلم عنه الكثير، كل ما أعرفه أنه كان أستاذا في سلك الثانوي، ولم أكن لأعلم الكثير لأنه غادر تلك المهنة لسبب لا يعلمه أحد إلا هو، بل إني موقنة أن سعيد يعلم أيضا، لكنه لم يفصح لي عن شيء، بل تذرع بالقول إنه لا علم له بما حدث... صار جمال عاطلا عن العمل.. انعزل في منزل عائلته ولم يغادر غرفته إلا لماما، حتى عائلته لم تقدر على مناقشة الموضوع معه، أرادوا تفسيرا معقولا لما أقدم عليه، بل لعلهم لم يكونوا بحاجة لأي تفسير ولو كان معقولا، كانوا بحاجة إليه ليظل في عمله لأنه كان

يقوم بالكثير من نفقاتهم. لكن لا أحد يقدر على مفاتحته في الموضوع، لأنه عود الناس منذ صغره أن لا يتدخلوا في شؤونه، فقد كان يقرر وينفذ ما يمليه عليه ضميره. ظل لأيام على هذه الحال، وذات يوم قيل أنه اختفى، ولعلك تعرفين أين اختفى يا حليمة..؟

كانت الدموع تسيل على خدي حليمة، ودت لو لم تعرف أي شيء من هذا، كيف ستنظر إليه الآن؟ إنها لا تستطيع أن تخفي عنه أنها على دراية بماضيه، دعت الله أن يعينها على تحمل هذه الحقائق التي تناهت لأسماعها للتو.

لكن شيئا آخر كان يعبث بعقلها، كيف لمن له مثل هذا الماضي أن يكون حافظا للقرآن؟ وكيف له أن يصير على ما هو عليه اليوم؟ وتوسمت أن تجد الإجابة عند نعيمة، إجابة أخيرة تنصرف على إثرها، سألت نعيمة:

ـ إني لا أفهم متى حفظ جمال القرآن؟ أنت ترين الآن أنه إمام مسجد، وهو يجيد عمله أيما إجادة؟ ألا تعرفين شيئا عن ذلك؟

ـ أغلب الظن أنه قد حفظ القرآن في مدينة فاس، وهو يدرس في سلك الماستر، لقد حدثتك من قبل أنه آب إلينا بغير الشخصية التي ذهب بها، عاد في عامه الأول بلحية خفيفة، ولا يشرب الخمر، ربما ذاك هو السبب، وربما لم يكن يجالسنا إلا وفاء للذكرى، فكم كان يكرر دائما في كلامه أشياء عن الوفاء بالذكرى، وحتى سعيد أخبرني أنه

يحب في جمال وفاءه وإخلاصه المتين للذكرى، لأنه يؤمن أنها ينبغي أن تحفظ، لأن فيها شيئا من الوجود.

ودعتها حليمة وعادت إلى بيتها تسير على غير هدى، آلمتها معرفة الحقيقة أكثر مما أسعدتها؟ لم تجد جمال في البيت كان قد ذهب ليصلي بالناس صلاة المغرب، انتظرته على أحر من الجمر، لكنه تخلف عن المجيء، لعله يلقي درسا في الناس بين الصلاتين، ظلت تحاول جاهدة أن تبدو على ما يرام. كفكفت دمعها لكنها لم تفلح في إخفاء الحمرة التي اصطبغت بها عينيها... بعد صلاة العشاء، قدم جمال إلى البيت، لم يجد حليمة في الصالون فتوجه إلى غرفة النوم، رابه منظرها، خيل إليه كأنها كانت في عزاء، لقد اعتاد أن يجدها أحيانا قد جففت عيناها من الدمع على ابنتها، لكن ليس إلى هذه الدرجة التي تبدو عليها هذا المساء. تقدم إليها وضمها إليه بحنان يسألها عما يبكيها... أبعدته عنها، ونظرت إليه بألم:

ـ أنا أعرف ماضيك يا جمال؟ أعرف الكثير مما مررت به.

صعق لقولها وانتفض من مكانه:

ـ كيف؟ ماذا تخرفين؟ أي ماض تتحدثين عنه؟

ـ ماضيك يا جمال، ما كنته قبل أن تصير هكذا.

استطاع أن يضبط نفسه ويعود إلى هدوئه، ثم أمسك بذراعيها وقال:

ـ أخبريني كيف عرفت؟ ومن أخبرك بذلك؟

ـ سأحدثك بذلك، لكن لا تغضب مني، ودخلت في نوبة بكاء هستيرية.

ـ لا، لن أغضب منك، لا يفيد الغضب بعد حدوث الشيء ولا يجدي نفعا...

ـ تعرفت على شابة هنا، التقيتها مصادفة في السوق اسمها نعيمة.

ـ نعيمة ؟!

ـ نعم إنها حسنة المعرفة بك، وقد تعرفت عليك حينما زارتني اليوم ورأت صورتك..

قام من مكانه يذرع الغرفة جيئة وذهابا،

ـ ألم تقل إنك لن تغضب مني؟ وانفجرت باكية مرة أخرى.

ـ لست غاضبا منك، بل أنا غاضب من نفسي. لا بأس، انسي الأمر، لعل في ذلك خيرا.

ـ هل ستفارقني الآن بعدما عرفت الحقيقة؟ أرجوك أصدقني القول؟

ـ لا، لن أفارقك، اطمئني.

قامت إليه وأسقطته على السرير مرتمية في حضنه، أراد أن يضمها إليه ليهدأ من روعها، لكن يداه لم تستجيبا لهذه الإرادة، وفطنت هي إلى ذلك فساعدته على تطويقها بذراعيه... انتظرت أن تسمعه يقول لها أحبك كما اعتاد القول في مثل هذه المواقف، لكنه لم ينبس ببنت شفة، كانت أنفاسه متسارعة كالمطارد.

أزاحها عنه بكثير من الرفق، طلب منها أن تأتي بكأس من الماء، فاستجابت في صمت مطبق، أتته بكأس الماء فتجرعه دفعة واحدة وهو الذي يراعي آداب الشرب، إن الطريقة التي شرب بها الماء كفيلة بأن تشي بأن جمال استيقظ فيه جزء من ذلك الرجل القديم الذي دفنه بداخله، وبما أن الأمور لم تكن تبشر بخير. قررت حليمة أن تجازف وتسأل عن الأشياء التي لم تحصل لها على جواب من نعيمة، وليحدث ما يحدث، فقالت له:

ـ أناشدك بالحب الذي بيننا أن تخبرني لما غادرت وظيفتك؟ كيف اتخذت هذا القرار الصعب؟ إن لي شكوكا وأريد أن أتأكد منها.

ـ لا حاجة لأن تناشديني بشيء، كنت سأخبرك في كل الأحوال، لقد انكشف كل شيء، ولم يعد هناك من داع لدفن الماضي. سأحدثك عن سبب مغادرتي تلك الوظيفة التي كنت أحبها وأجد فيها ضالتي. وعن كل شيء آخر تريدينه.

- أخبرني أرجوك ؟

- أخبريني أولا بكل ما حدثك به نعيمة، إني أعرفها حق المعرفة وهي كثيرة الكذب والانتحال في الأخبار.

أخبرته حليمة بكل ما جاء على لسان نعيمة، كان حدس جمال صائبا. فقال لحليمة:

- صدقتك في ما روته عني، وكذبتك في ما روته عنها.

- كيف ذلك؟ هل تقصد أن ما حكته عن نفسها كان كاذبا؟

- ليس كله، بل بعضه، فهي لم تتعرض للاغتصاب، بل هي من أغوت ذلك الشاب المسكين، سلمت له نفسها عن طواعية، وفي الغد توجهت لمكان عملها، فألفت صاحب المطعم يرغد ويزبد، فطردها دون شفقة، ولأنها خشيت عقاب والدتها ادعت أنها اغتصبت لذلك تغيبت عن العمل، رافقتها والدتها للطبيب فأعدت شهادة طبية أعقبتها بشكاية لدى السلطات، أدلت بأقوالها عند الشرطة وتحت تأثير الخوف أطلقت العنان لمخيلتها، فادعت أن مغتصبها كان معه صديقه في السكن، رافقها عناصر الشرطة لمكان الجريمة المزعوم وألقوا القبض على الشابين، فحوكم المغتصب بسنتين سجنا، ورفيقه بالسكن الذي لا ناقة له ولا جمل في الأمر بسنة واحدة.

- وهي تخفي هذه الحقائق حتى عن سعيد، ولولا أن الخمرة ذات يوم قد دبت إلى موطن أسرارها لما كنت أنا أيضا أعرف شيئا، إنها امرأة عجيبة يا حليمة ؟ ولا أدري كيف كانت لتكون حالها لو لم تلتق بسعيد؟ فسعيد وحده هو من صنع منها إنسانة ولو على قدر يسير من الاستقامة. فقبل أن تعرفه كانت تتعاطى كل أصناف المخدرات لتنسى فقط، وكانت معجمها مبتذلا كل الابتذال، وبالنظر لفارق العمر بينهما، يصح القول أنه رباها من جديد كما يربي الأب الصالح ابنته. لا أريد أن أطيل في الحديث عنها، فلا شك أنك متشوقة لتعرفي أخباري أنا، لا أخبار تلك المرأة، وبما أن نعيمة أخبرتك عن سيرة حياتي الأولى فسأتمم من حيث وقفت وأخبرك بما جهلته ولم تخبرك به.

ذات بداية سنة دراسية توجهت إلى الإدارة لتوقيع محضر الدخول، كان المدير في المكتب ومعه سيدة تدير ظهرها صوب الباب، استأذنت بالدخول، فأذن لي، سلمت على المدير ومددت يدي لأسلم على السيدة التي معه، وما إن وقع بصري عليها حتى كاد يغشى علي، كان المدير يعرفني عليها ولم أعر اهتماما لما كان يقوله، ظللت أحملق فيها فقط، وقلبي يكاد يتوقف نبضه، خشيت أن يكون هذا مجرد وهم تصوره لي نفسي، فأنا غالبا ما أرى صورتها في كل النساء الجميلات، لكنه لم يكن وهما إنما كانت هي بالذات، نفس العينين الساحرتين التي فيهما حور، تقاسيم الوجه نفسها وإن اصطبغت ببعض الجدية، الرشاقة نفسها. لم يتغير فيها شيء غير نظاراتها.. انتهى اللقاء بأن شيعنا المدير معا نحو الباب وهو يوصيني بمرافقة الأستاذة الجديدة لأعرفها على مرافق المؤسسة. انطلقنا معا دون أن ينظر أحدنا إلى الآخر، ودون أن ننطق بحرف. بدأنا نسير بغير هدف حتى انتهى بنا الحال خارج المؤسسة ننتظر سيارة أجرة، أوقفت سيارة، وفتحت الباب، انتظرتها لتركب، ثم أوصدته، غادرت والدموع تؤذن بالانفجار من عيني، لعنت نفسي ولعنتها ولعنت الصدف. فكرت مليا كيف أتخلص من هذا الموقف، ولم أهتد إلى أي حل... بدأت الدراسة وكانت تدرس في قاعة مجاورة لقاعتي، تغيرت عدة أشياء، صرت أحكم إغلاق باب القاعة حتى لا يصلها صوتي فيشوش عليها. صرت أسلك كل السبل التي قد تحول دون اصطدامي بها، لكن أنى يمكن ذلك. كان لا بد أن نلتقي، كنت أتأخر في الخروج من القاعة بعد نهاية الحصة حتى تلتحق بقاعة الأساتذة.

وقد يحدث أحيانا أن ألزم القاعة زاهدا في ذلك الكأس من الشاي الذي يكسر به الأساتذة عادة تلك الرتابة، ويمدهم ببعض الطاقة. لكن كان التحدث إليها مصيرا لا يمكن الفرار منه، فقد حدث ذات يوم أن خرجنا من المؤسسة مع السادسة، فاتجهت إلي وأشارت لي أن أتبعها إشارة السيد للعبد. هل كان بإمكاني أن أتمرد وأسلك طريقا آخر؟ ليتني استطعت ذلك، تبعتها بكل خضوع حتى استوقفت سيارة أجرة فركبت وتركت الباب مفتوحا لأركب معها، ترددت في البداية ثم نظرت إلي نظرة حرت في تفسيرها لأول مرة. ركبنا السيارة معا دون أن يكلم أحدنا الآخر. ظللت مطرقا برأسي للأرض، وفجأة سمعتها تطلب من صاحب السيارة أن يتوقف ونقدته ثمن الأجرة ثم نظرت إلي تطلب مني الترجل. وددت لو أعاتبها على دفع الأجرة، أردت أن أقول لها أنه أصبح معي الآن مال، وأني لم تعد بي خصاصة كأيامي السابقة، ربما فعلت ذلك لأنها اعتادت فيما مضى أن تدفع هي دائما لأني كنت في غالب الأحيان معدما. لكني التزمت الصمت سيكون هذا قولا سخيفا لو تفوهت به. تمشت أمامي بغنج كبير وأعاد لي هذا سيلا من الذكريات، كنت أحب أن أراها أمامي تمشي، ولعلها فطنت إلى ذلك فتوقفت وأشارت بعينيها أن أسير بجانبها، منذ لقائنا وهي تتحدث إلي بعينيها فقط دون أن تنطق كلمة، وأنا أنفذ دون أن أجهر بصوت. لعلنا فقدنا القدرة على الكلام معا، دخلنا إلى أحد المقاهي الجميلة، ولا أرتاب أنها كانت هنا من قبل، فقد بدا أنها تعرف المكان لأنها صعدت السلالم مباشرة إلى الطابق الأعلى، وما

إن جلسنا حتى تقدم إلينا النادل الذي كان يخدم بعض الزبائن في هذا الطابق، سأل عن طلبنا فقالت:

ـ قهوة سوداء وكأس حليب من فضلك.

هم النادل بالمغادرة فاستوقفته قائلا:

ـ كأسان من القهوة من فضلك.

نظرت إلي بذهول:

ـ هل أمسيت تشرب القهوة؟ عهدتك لا تقربها لأنها تتلف أعصابك.

ـ أشياء كثيرة تغيرت.

سالت دمعة من طرفها الكحيل فشعرت كأن خنجرا غرز في قلبي، لا شيء كان يؤلمني أكثر مما تؤلمني دموعها. كنت من قبل أمسح دمعها، لكنني لم أتجرأ هذه المرة فقد شعرت بالعجز.. وأن لا حق لي بلمسها..

نظرت إلي بانكسار بين على محياها، ثم قالت:

ـ لم لا تتحدث إلي ولو بكلمة؟ أيبهجك أن تعذبني هكذا؟

ـ لا ندري أينا المعذب يا سيدتي؟

ها أنت ذا تناديني سيدتي، كأني إنسانة غريبة عنك! أو كما قال الشاعر :

تمر بي كأنني لم أكن   ثغرك أو صدرك أو معصمك

أنسيت أننا فيما مضى :

لو مر سيف بيننا لم نكن   نعلم هل أجرى دمي أم دمك

وضع النادل كأسي القهوة على الطاولة وانصرف، أضفت بعض السكر لكأسي وارتشفت رشفة استشعرت فيها مرارة كبيرة، فأنا لم أشرب القهوة منذ زمن، إنما ادعيت أني أشربها في حضورها فقط! لم أرد على تساؤلها إنما أطرقت برأسي إلى الطاولة وأنا أدير الكأس حركات دائرية أحاول استجماع قواي والصمود أمام هذا الموقف الرهيب..

ـ هل ستظل ملتزما الصمت هكذا؟ تحدث؟ قل أي شيء؟

ـ ماذا تريدينني أن أقول يا مريم؟

مدت يدها لتمسك بيدي، فسحبتها بسرعة. خشيت أن تتلامس أيدينا فتبعث بداخلي كل الأحاسيس الموؤودة، فأرتمي عليها أقبلها وأعانقها، وأبكي بين ذراعيها مثل طفل صغير. شعرت بالحرج من ردة فعلي فانكفأت تبكي بكاء ظاهرا محاولة فك عقدة من لسانها.

ـ جمال، إنك أعلم الناس أني ما أحببت غيرك، ولم أسلم روحي إلا إليك، فإن كان أهلي قد زفوا هذا الجسد إلى رجل آخر، فإني أقسم لك بكل محرجة من الإيمان أن روحي ظلت ترفرف حولك، وما نسيتك يوما. أتذكر يوما عندما كنا نقرأ رواية لمحمد زفزاف معا فتوقفت عند تلك اللحظة التي كان فيها السارد يضاجع امرأة وهو يتخيلها امرأة أخرى، وقلت لي إن هذه أعظم خيانة قد يرتكبها الإنسان. فاسمح لي

إذن أن أخبرك أني خائنة، لأني لطالما تخيلت أحضان زوجي أحضانك، وما قبلني إلا ورأيت فيه صورتك. صدق أني كنت كما قال الشاعر:

إني لتعروني لذكراك هزة   كما انتفض العصفور بلله القطر

شعرت ببعض الانقباض والحسرة، فهي وإن كانت لم تقصد إلى هذه الخيانة التي أملتها عليها مشاعرها، إلا أني كنت أربأ بها عنها، لكني التمست لها العذر فهي خيانة لم أسلم منها أنا أيضا.

ثم أضافت:

ـ بل إني كثيرا ما ناديته باسمك، مما جعله يرتاب ويرغد ويزبد، وكاد أن يودي به غضبه إلى فسخ علاقتنا إن لم آتيه ببرهان يمحق هذا الشك. أخبرته أن اسم جمال إنما رسخ في ذهني من رواية قرأتها فلم يقتنع إلا بعد أن أخرجت له من مكتبتي الرواية التي أهديتني إياها، والتي بطلها شخص اسمه جمال، أخبرته أن تعاطفي مع بطل الرواية جعل اسمه ينثال على لساني انثيالا من غير شعور، وبصعوبة اقتنع..

شعرت أننا نتقاسم هذه العذابات، فأنا أيضا لم أسلم من خيانة كل النساء في فكري معها، وكم كان لساني يزل فأنادي الكثير منهن باسمها. قمت من مكاني وأشرت لها أن تتبعني، شعرت كأني استرجعت سيادتي المفقودة، قامت من مكانها وتبعتني، توجهت إلى النادل فأديت له ثمن القهوة. أمسكت بذراعي وقالت:

ـ إلى أين؟

ـ لنسير في الأرض؟

ـ ينبغي أن أذهب الآن، لقد تأخرت.

رفعت يدي، واستوقفت سيارة أجرة، وفتحت لها الباب فوقفت مذهولة، كأنما تمنت أن أستبقيها أكثر لا أن أنفذ رغبتها على عجل. ركبت السيارة وودعتها قائلا بصوت يشبه الهمس:

ـ أراك غدا.

وبحلول الغد التقينا في الساحة لأول مرة نتصافح ونبتسم في وجوه بعضنا، تبادلنا حديثا قصيرا والتحق كل واحد منا بقسمه. نشأ بيننا ما يشبه الصداقة الجديدة، وإن كان يقال أنه من الممكن للصداقة أن تتطور لحب لكن يستحيل أن يتراجع الحب ليصبح صداقة. إلا أننا حاولنا جهدنا أن نخلق هذه الصداقة رغم ما في الأمر من نصب. فليس من اليسير أن يقنع المرء قلبه وفكره بأن يعدلا عن الحب ويقتنعا بالصداقة، كنت أمدها بأي وثيقة تحتاجها ونمضي أوقات الاستراحة معا، حتى أننا صرنا نتخلف عن قاعة الأساتذة ونتبادل أطراف الحديث أمام قاعتينا المتجاورتين... وكان هذا السلوك كفيلا باختلاق بعض الإشاعات التي لم يمنع من تداولها كون المرأة متزوجة. واضطرني ذلك إلى التخفيف من هذه الأحاديث التي تجمعنا تدريجيا حتى كادت تنعدم رغم احتجاجها المتواصل على هذا القرار. وأقنعتها في النهاية أني أفعل هذا من أجل سمعتها، ولأننا ابتلينا بمثل تلك الأحاديث التي كانت تسري عن أنفسنا، فقد كان من الضروري أن نجد لها فضاء آخر، لكنني خشيت أخذ المبادرة لذلك

اكتفيت برؤيتها فقط وإلقاء التحية. وذات يوم أحد رن هاتفي فأجبت متلهفا:

ـ اعطني عنوانك.

هل كان لدي وقت للاعتراض؟ كلا، حدث ذلك بسرعة، أعطيتها العنوان دون أن أرى في ذلك حرجا. بعد ردح من الزمن أعادت الاتصال، وطلبت مني أن أخرج للشارع الرئيس للقائها فخرجت. صافحتها وأنا مصدوم مما أقدمت عليه، تسمرت وحرت بين شتى الفكر، أحست بما غمرني من حيرة، وكيف لا تفعل ذلك وهي الخبيرة بأحاسيسي؟ ثم قالت:

ـ هل سنبقى واقفين هنا؟ هيا تقدم.

ـ إلى أين؟

ـ إلى منزلك طبعا.

ـ آه، طبعا، تفضلي.

سارت معي وأنا غارق في التفكير، شعرت أني مقبل على ارتكاب خطيئة كبيرة، كانت تعرف ما يؤرقني من أفكار فالتزمت الصمت، دخلنا إلى البيت وساءها حاله. الكثير من الأشياء كانت موضوعة بغير ترتيب، كانت عيناها تجولان بالمكان تبحثان عن قارورة خمر فارغة. أرادت التأكد إذا ما كنت ما أزال أعاقر الخمر. جلست على الأريكة، واتجهت إلى المطبخ وهي تتذرع بشرب الماء، لكنني عرفت أنها كانت تبحث عن أدلة للإدانة. ومن سوء الحظ أنها وجدت بعضها، فقد

عثرت على علبة سجائر فارغة في صندوق القمامة.. عادت وفي يدها إحدى العلب ورمتها على صدري وهي تصرخ بجنون:

ـ متى بدأت تدخن؟

كانت هذه من بين الحالات التي يجتمع في قلبي شعور يناقض الشعور الآخر، شعور بالسعادة لأني شعرت بها كالزوجة التي تعاتب زوجها، وشعور بالخيبة لأن ذلك لم يكن صحيحا.. شعرت بالحرج واستسلمت لتوبيخها، وبختني كما توبخ الأم الرؤوم ابنها المشاكس المفتعل للمشاكل. لم أرد عليها بكلمة، وانتهت إلى الجلوس على الأريكة بالقرب مني وهي تذرف الدمع مدرارا. سولت لي نفسي أن أعانقها لأخفف ما بها من كدر. لكنها سبقتني لهذا، ولم أشعر بها إلا وهي ترتمي في حضني منتحبة أشد ما يكون الانتحاب، وهي تجهش قائلة:

ـ لم قدر لنا هذا اللقاء، وطنت نفسي على نسيانك، فكيف ظهرت في حياتي كشعلة أوقدت في قلبي نيران الحب التي جهدت في إخمادها... أوهمت نفسي أن حبك أضحى رمادا. لكني ما إن رأيتك حتى انبعث هذا الحب كطائر الرخ من رماده..

آلمني كلامها ألما شديدا، وآلمني كثيرا ألا طريقة أمامي للابتعاد.. أبعدتها برفق عني خشيت أن أدعها في حضني فأتمادى وأنساق وراء عاطفتي، وقفت ودست هي وجهها في الأريكة تبكي بمرارة. رفعتها ومسحت دموعها وتماديت هذه المرة فقبلتها بين

عينيها كما كنت أفعل في ذلك الماضي السحيق. فتحت الباب وطلبت منها أن نخرج معا. فقالت:

ـ تريث لا أريد الخروج الآن.

ـ بل سنخرج الآن قبل أن نقع في المحظور؟

أمسكت بيدها وخرجنا معا، ودون أن أستشيرها أوقفت سيارة أجرة وفتحت لها الباب فدلفت إلى السيارة، وقبل أن أصفق الباب وراءها قلت لها بصوت حاولت أن أجعله هادئا:

ـ سأحاول أن أبتعد وأدعك تعيشين بسلام، لا أعرف كيف؟ لكني سأفعل، أعدك.

انطلقت السيارة وعدت كئيبا أناجي النفس وأمنيها السلو الذي أرتاب أن يتحقق يوما. ومنذ ذلك اليوم لم أجب على اتصالاتها المتكررة، ولا حاولت أن أكثر معها الحديث ولو أتيحت لي الفرصة لذلك. كنت أكتفي بإلقاء تحية مقتضبة وأختفي من أمام ناظريها. ظلت الأمور على هذه الحال أياما، وذات يوم في فترة الاستراحة باغتتني في قاعة الدرس، ودفعا لأي شبهة طلبت منها أن نتحدث خارج القاعة فاستجابت، وقفنا في الممر أمام القاعة فانتظرت أن تفاتحني في موضوع هذه الزيارة، لأنها التزمت الصمت كأنها تنتظرني أنا أن أبدأ، فاستفسرتها ما الأمر. وقالت بصوت منكسر:

ـ لم تعذبني هكذا؟

ـ أنا!

ـ نعم أنت. ومن غيرك؟

ـ وماذا فعلت؟ بأي ذنب تأخذينني؟

ـ أنت أدرى. فلا تدعي البراءة!

ـ مريم أنت ملك لرجل آخر فعيشي لهذا الرجل، إني أبتعد عنك لأجلك، فأرجو أن تقدري هذه التضحية. كما أنك لست الوحيدة التي تتعذب فأنا لي عذاباتي أيضا.

ـ ومن قال لك أن تبتعد لأجلي؟ هل استجديتك لتفعل هذا؟

ـ لم تطلبي مني ولا استجديتني لأفعل ذلك، بل إني أفعله من تلقاء نفسي، فإني أخاف أن نقع في المحظور. ولست يا مريم ممن يأخذون من الآخرين ممتلكاتهم أو يشاركونهم فيها. أرجو أن تتفهمي الوضع.

نظرت إلي بغضب ثم قالت:

ـ أكرهك.

نظرت إليها مبتسما وما زدت على أن قلت لها:

ـ شكرا، أعرف ذلك.

ثم دق الجرس وانصرف كل واحد منا إلى حال سبيله. بعد هذا الحادث، انقطعت حتى التحايا المقتضبة بيننا وحل محلها نظرات محملة بكل ألوان المشاعر وأصنافها. إلى أن جاء ذلك اليوم الموعود، فقد حدث ذات يوم أن كنت أبني الدرس مع تلاميذي وإذا

بي أسمع صراخا وضجيجا خارج القاعة فتطلعت إلى الأمر. كانت مريم في مشادات مع أحد تلاميذها ذوي السلوك غير السوي. وقبل أن أتجاوز باب القاعة دفعها دفعة قوية فأسقطها أرضا. نسيت أني أستاذ في مؤسسة تعليمية، واستيقظ العاشق بداخلي فاتجهت نحوه وأوسعته ضربا مبرحا. ذهل الجميع، تلامذة، وأساتذة، وتساءلوا فيما بينهم وبين أنفسهم كيف لجمال أن يقدم على هذا الفعل وهو الأستاذ القدوة في حسن السلوك ومضرب المثل في رهافة الحس ونبذ العنف. لم يشفع لي حسن سلوكي في أن أسلم من أن تتناولني الألسنة وتنسج حولي القصص والأقاويل. صدر قرار بتوقيفي إلى حين أعرض على المجلس التأديبي فقد أوسعت التلميذ ضربا مبرحا، انتظرت أن ينعقد هذا المجلس وسرعان ما انعقد وحضر معي أستاذ أعلى مني رتبة يؤازرني، سئلت عما حدث، فقلت ببساطة إني أوسعت التلميذ ضربا بعدما أسقط زميلاتي أرضا، سئلت عن الدافع وراء هذا؟ فقلت إني لم أتمالك نفسي، برأتها وتحملت المسؤولية بكاملها . خرجت من المجلس لا ألوي على شيء. لم أنتظر معرفة قرار هذا المجلس لأني تعرفت على امرأة جميلة سافرت معها وتركت كل شيء ورائي.

سرها أن تسمعه يصفها بالمرأة الجميلة رغم ما بها من كدر..

- لكن متى حذقت القرآن ؟ وألممت بأمور الدين ؟
- كان لي زميل بالماستر أخبرني خلال تعارفنا في بداية الموسم الدراسي أنه يداوم على حفظ القرآن عند أحد الشيوخ، فأعلنت

له عن رغبتي بحفظ القرآن والنهل من علومه، تحمس للفكرة أيما تحمس واقترح علي أن يرافقني عند هذا الشيخ بحلول المساء، حاولت أن أتملص وأراوغه، لكن إصراره وتحمسه للفكرة كان أقوى، رافقته عند الشيخ، دخلنا عليه المسجد، فقبل صديقي يده تعبيرا عن الاحترام، أما أنا فاكتفيت بمصافحته فقط، جالسناه لردح ليس باليسير من الزمن تحدثنا فيه عن أمور كثيرة، رحب بي بعدما أبدى موافقته على أن أكون مريدا عنده. ومن الغد صرت أقضي أوقات فراغي في المسجد أطالع حينا في الكتب المصطفة على الرفوف وأحيانا أحفظ ما تيسر من الآيات، كان للمسجد قبو يسكنه طلبة تفرغوا لحفظ القرآن، وقد جهز القبو بأسرة النوم وكل ما يحتاجه هؤلاء، كنت مثالا جيدا في تحصيل العلم، ولم يمض وقت طويل من ترددي على ذلك المكان، حتى أخضعني الإمام لدرس مفاجئ في البلاغة والنحو، ليعهد إلي بمهمة تدريس أولئك الطلاب مبادئ النحو وفصولا ممتعة من البلاغة العربية كل مساء، كانت تلك أول أستاذية أمارسها، ولن أنكر أني استفدت مع أولئك الناس الشيء الكثير..

- لكن كيف كنت تتدبر أمور معيشتك ؟
- لقد نسيت أن أذكر ذلك في ثنايا حديثي يا حليمة، أخبرتك أن أولئك الطلاب كانوا يعيشون في قبو المسجد، وقد كنت أراها عيشة راضية مقارنة بغرف الطلبة المؤجرة، لذلك انضممت إليهم، وعشت بينهم لا أنفق درهما على المأكل والمشرب كما

لا ينفقون، إذ كان المحسنون يتكلفون بكل شيء، وينفقون على هؤلاء الشباب الذين تفرغوا لحفظ القرآن بسخاء.

كانت حليمة تنظر إليه غير مصدقة لما تناهى إلى أسماعها، كيف أمكنها أن تعيش كل هذه المدة مع رجل يخفي عنها كل هذا؟ عانقته بشدة وهمست في أذنه:

ـ أما زلت تحبها؟

ـ نعم يا عزيزتي، ما زلت أحبها وسأظل.

ـ وأنا هل تحبني؟

ـ نعم أحبك.

ـ غير معقول! إن ما تقوله لا يقبله منطق.

ـ بلى يا حبيبتي، إن أمكنك أنت أن تسكني قلبك رجلين : زوجك السابق وأنا، فلم لا يمكنني أنا أن أسكن قلبي امرأتين؟ إننا متشابهان يا حليمة. كلانا يسكننا شخص أخر، وكلانا يحاول أن يجد سكنا مفقودا في قلب الآخر.

وضبي حقيبتك يا حليمة سنرحل..؟

4

صارت حليمة تخشاه أكثر مما مضى بعد أن عرفت ماضيه، بادرت إلى توضيب ما وجدت إلى توضيبه من الضروريات سبيلا، أما الباقي فساعدها في جمعه في ركن من أركان الغرفة. انتهيا من إعداد حقيبتيهما، لم تطق حليمة صبرا فقالت متبرمة لأنها تخاف عيش تجربة ضياع أخرى:

ـ إلى أين يا جمال؟

ـ سنذهب إلى البيضاء.

بث ذكر هذه المدينة ذعرا في دخيلتها فقالت:

ـ لم يا جمال؟ لماذا البيضاء بالضبط ؟

ـ سنختطف ابنتك.

حملقت فيه لتتأكد من جديته في الكلام، نظر إليها بتقاسيم لا يداخلها شك من قريب أو بعيد.

ـ ألا تريدين ذلك، أنت أحق بابنتك، وحرمانك منها ظلم.

ـ إنك تحدثني عن الاختطاف يا جمال، إنه جريمة في نظر القانون.

ـ لن أتناقش معك في الموضوع، إن لم تكوني تريدين ذلك فلا تذكري لي شوقك إليها مجددا.

ـ أنا أشتاق إليها في كل حين يا جمال، أنت أعلم الناس بذلك، لكن كيف نفعل ذلك. وماذا عن عملك هنا ؟

ـ سأقدم استقالتي هذا المساء للمكلفين بالمسجد، لم يعد بالإمكان البقاء هنا أكثر، فالناس يزيد اختلافهم حولي كل يوم، وأنا أحب أن أغادر مطمئن البال على أن يؤجج بقائي اختلافهم..

ـ الكثير من الناس يحبونك يا جمال، وأولئك الذين يتمنون رحيلك ما هم إلا قلة ينكأ كلامك جروحهم ويذكرهم بآثامهم وزلاتهم التي يخفونها تحت عباءة الورع..

ـ سنرحل وإن اتفق الناس، وأجمعوا أمرهم حولي، فعائلتي ستكون هنا في أقرب وقت للبحث عني.

أطرقت حليمة للأرض، فهمت أنها هي التي نسفت هذا الاستقرار الذي نعموا به، فنعيمة ولا ريب أنها أبلغت قريب جمال بالخبر لأنه نبأ عظيم في نظرها، وما كانت لتسكت عنه، وقد تخبر أحدا آخر أيضا، وحتى سعيد لم يعد جمال يؤمن بكتمانه للأسرار..

خرج جمال ليصلي بالناس صلاة المغرب، وبعد انتهاء الصلاة التقى القائمين على المسجد، وأنبأهم بعزمه على الرحيل صباحا، نزل عليهم الخبر كالصاعقة، ظنوا أن الرجل قد فقد رشده، حاولوا أن يثنوه عن الرحيل دون جدوى. وحتى الذين يضمرون له المعارضة ويتهامسون بضرورة رحيله عن المسجد، حاولوا أن يظهروا تشبثا زائفا ببقائه، توقعوا أن يقاومهم حتى يحصلوا لذة التحدي، ويتذوقوا طعم

الفوز، لكنه بهذه المباغتة كسر كل أفق توقعاتهم. قال لهم بكل أدب :

- إني أشكركم على ضيافتكم، وعلم الله أني لم أكن لكم غير الحب والاقتدار، وإني آسف كل الأسف لأني لا أستطيع الاستمرار في هذه المهمة، وذلك لبعض الأسباب الشخصية ولأسباب أخرى تعلمونها. ولا أخالكم تخالفونني الرأي في أن مغادرة شخص واحد لهو خير من انقسام الجماعة واحتدام الصراع بينهم..

استأذن في المغادرة واعتذر عن حضور صلاة العشاء، وترك أصحابه في ذهول كبير، بعد صلاة العشاء، سمع طرقا على الباب، وإذا به العجوز المرح. ألقى التحية فآذن له جمال بالدخول مرحبا به أيما ترحيب. قامت حليمة بسرعة البرق إلى غرفة النوم. جلس جمال والشيخ وساد بعض الصمت بينهما، ثم أخرج الشيخ مظروفا وقدمه إلى جمال، تردد في أخذه لكن الحاج عمر أصر على أن يستلم جمال المظروف قائلا:

- خذ، هذا بعض المال الذي كنا قد ادخرناه، وهو يزيد عن أجرة هذا الشهر بقليل، استعن به إلى أن يرزقك الله مكانا آخر يعرف فيه الناس قيمتك ويقدرونك حق قدرك.

ضغط جمال على يد الشيخ بقوة تعبيرا عن امتنانه وشكره، ورجا لو يتحقق حلم الشيخ، لكن أنى له ذلك وهو على وشك القيام بعملية اختطاف، وهي جريمة في عين القانون، وفعل محمود في عينيه،

لأنه يؤمن أن الطفل قادر على العيش دون أب، لكنه غير قادر على العيش دون أم، أو قل إن ما يحصله من العطف والحنان عند الأم أكثر منه عند الأب.

أمضى ليلته تلك تؤرق الهواجس مضجعه، شعر أنه يرتجل هذه القرارات دون روية، لكنه ما لبث أن استسلم للنوم، ولم يستيقظ إلا مع صلاة الفجر. قام متثاقلا للصلاة، أدّاها ثم تحدث مع الحاج عمر وأوصاه أن ينقل بعض الأثاث الذي سيبقى في المنزل عنده، وأن يحافظ عليه بأي شكل من الأشكال حتى يعود، طمأنه الحاج أن أشياءه في أيد أمينة. قبّل جمال جبهته تعبيرا عن الاحترام الكبير الذي يكنه له، دخل إلى المنزل وأيقظ حليمة ليستعدا للرحيل. استقلا حافلة صوب البيضاء ولم يتحدثا كثيرا في الطريق. صارا مثل زوجين تجاوزا سن الثمانين لا يتحدثان إلا للضرورة، خمدت كل الرومانسية التي كانت بينهما وكان كل واحد منهما يرجع الأمر بينه وبين نفسه إلى ما طرأ على حياتهما في الآونة الأخيرة... بلغا البيضاء، وشعرت حليمة برغبة في التحرر من برقعها وردائها الفضفاض، لمحت لجمال بذلك، فغضب غضبا شديدا، حتى أنه نظر إليها نظرة شزراء ألقت في قلبها الرعب، حاولت تهدئة غضبه فقالت:

ـ لا داعي لأن تغضب هكذا، إنه مجرد اقتراح، لأن لا أحد يعرفني هنا؟

ـ وهل ظننت كل هذه المدة أني طلبت منك أن تلبسي هذا اللباس ادعاء أمام الناس فقط؟ هل تظنين أني أخشى الناس إلى هذه الدرجة؟ عوض أن أخشى الله؟

سكتت ولم تعقب، ثم نظر إليها وأردف:

ـ سنذهب إلى مطعم زوجك الأول؟

صدمتها الفكرة لأنه أعلن عنها للتو، أرادت أن تناقشه فيها ، وتعرف الأسباب الكامنة وراء زيارته مطعم مصطفى، لكنها لم تستطع... أشار إليها أن تتقدمه، واستقلا سيارة صوب المطعم، صوب المكان الذي يوجد به أول رجل شغف حليمة حبا. بلغا المطعم وترددت حليمة في الإقدام، أعاد لها وجودها هنا سيلا من الذكريات التي هجمت عليها دفعة واحدة، خشيت أن يراها مصطفى لكنها فطنت إلى أنها مبرقعة. فظل الخوف نفسه يرزح على قلبها، حينها تأكدت أن خوفها لا يكمن في رؤية مصطفى لها، بل في أن تراه هي. ليس هينا عليها أن تكون مع زوج تعشقه بجنون في حضرة زوج سابق أحبته هو أيضا بجنون وما تزال، انتابتها كل هذه الهواجس والخواطر دون أن تحدث جمال بها، لكن جمال كان يعلم بما يضطرم به وجدانها لأنه ظل واقفا ينظر إليها متسمرة كالتمثال أمام المطعم تستقبل كل ذلك السيل من الخواطر والأحاسيس المتضاربة. جلسا في إحدى الطاولات وتقدم إليهما النادل، إنه النادل نفسه الذي كان يعمل هنا حينما أحضرها رضى للعمل أول مرة. دون طلبهما وغادر، وفجأة ظهر مصطفى عند الصراف بطلعته نفسها، خيل إليها أنه ازداد وسامة ونضجا، خط بعض الشيب فوديه ليضفي عليه هالة من الوقار، ودون أن تشعر أمسكت بيد جمال وتنهدت كأن خنجرا غرز في فؤادها. تأكد جمال من ظنونه وعلم علم اليقين أن حليمة لم

تنس مصطفى، ولم تكن لتنساه يوما، فقرر أن يرحمها وطلب منها أن يغادرا المطعم إن أحبت ذلك، فوافقته على الفور، ما إن انتصبا حتى لمحا فتاة صغيرة تجري صوب مصطفى الذي احتضنها يمطرها بالقبل.. قدمت حليمة رجلها لتركض نحوها لكن جمال منعها منعا لطيفا وساقها للخارج، خرجا يسيران في الشارع، وحليمة تبكي بكاء مريرا ودت لو تحتضن ابنتها وتخمد بعض الشوق الذي يتأجج به فؤادها..

قال جمال ليكسر الصمت الذي ساد بينهما وليخفف عنها بعض آلامها :

- ما رأيك أن تزوري صديقتك جيهان، ما دمت هنا. قد لا تتاح لك الفرصة مرة أخرى

لم ترد عليه، والتزمت الصمت. بقيا يسيران لبعض الوقت ثم قالت له بشيء من العصبية المضمرة:

- أنا متعبة
- إني أبحث عن فندق متواضع يأوينا.

لم يجتازا الشارع الكبير حتى لمح فندقا متواضعا فتوجها إليه، سأل عن ثمن الحجز، وبعد أن ساوما صاحب الفندق في الثمن طلب منهما عقد الزواج، فأخبره جمال أنهما لا يحملانه لأنهما لم يتوقعا المكوث بالمدينة لولا طارئ استجد عليهما، بصعوبة اقتنع صاحب

الفندق، أو قل إنه لم يشأ أن يضيع حجزا لستة أيام بسبب الشك، وفوق كل الشيء لم يكن يظهر عليهما أنهما يفتريان كذبا..

صعدا إلا غرفتهما بالطابق العلوي، ومكثا فيها مطرقين اختفى كل ذلك النشاط الذي كان يملأ حياتيهما، أمسيا غريبين ! أمضى الثلاثة أيام الأولى منذ نزولهما في الفندق يخرج صباحا ولا يعود حتى المساء دون أن يحدثها بشيء من أمره، وحتى حليمة تخلت عن عادتها القديمة ولم تسأله عن مبررات لغيابه، في أمسية اليوم الثالث جلس أمامها على السرير، وطلب منها أن تحسن الإصغاء إليه، حدثها بخطته كاملة وأخذ منها ميثاقا على أن تنفذ كل ما يشير عليها به..

5

اعتقله رجال الأمن، واحتفظوا به تحت الحراسة النظرية، استجوبوه فصعب عليهم الأمر، قاوم أسئلتهم وتمنع في الإجابة عنها. سألوه عن سبب إقدامه على الاختطاف فأبى أن يجيب، صرخ عليه المفتش وهو يتظاهر بصفعه. ظل ساكنا، بدأ المستجوب يجنح إلى اتهامه بالإتجار في أعضاء البشر تارة، وبتثبيت نية الاغتصاب تارة أخرى. وليبرأ بنفسه عن هذه التهم، لم يجد بدا من الاعتراف بالحقيقة، فأخبرهم بكل شيء، وأخبرهم بالفندق الذي تنزله حليمة، لم يمر وقت طويل على هذا الاعتراف حتى جاؤوا بحليمة وأخضعوها للاستجواب، لكنها أنكرت معرفتها بما خطط له جمال، ولم تخبرهم أي شيء آخر يتعلق بجمال أو حياتهما بأكادير، لم يطلقوا سراحها بل قدموهما معا للمحاكمة، مثلا أمام القاضي فوجه السؤال الأول لجمال:

ـ ارفع يدك وقل "أقسم بالله أن أقول الحق"

ففعل ذلك.

ـ اسمك واسم أبيك، وهل لديك سوابق؟ وهل تريد توكيل محامي؟

ـ جمال بن عبد الله، وليس لدي سوابق، وسأدافع عن نفسي.

ـ هل حاولت اختطاف الفتاة؟

ـ نعم سيدي القاضي.

ـ لماذا فعلت ذلك؟

ـ دافعي هو الحب يا سيدي القاضي، أردت أن أجمع الأم بابنتها.

كان مصطفى يستشيط غضبا، ود لو يقفز إلى جمال فيدق عنقه. أضاف القاضي:

ـ هل حليمة شريكتك في الجريمة؟ هل علمت بنيتك؟

ـ لا يا سيدي القاضي، لم أخبرها بشيء، ولم تكن على علم حتى لم جئت بها إلى هنا. إنها بريئة كل البراءة، وإذا شئت يمكنك القول إني غررت بها.

لم تترك صراحته للقاضي مجالا للضغط عليه، فتوجه بالسؤال لحليمة:

ـ هل كنت تعلمين بما خطط له جمال؟

سكتت لبرهة، ودت أن تعترف وتدخل السجن معه، كيف لا تفعل ذلك وهو الذي يخطط لسعادتها على حساب شقائه، لكنها خشيت أن تنكث بوعدها له فيتحطم كل شيء، فهي تثق به رغم أنه لم يطلعها على كامل خطته، أخبرها فقط أنه سيختطف هبة وإن ألقي القبض عليه فينبغي لها أن تنكر معرفتها بأي شيء، وتتشبث ببراءتها، وهو نفسه سيزكي براءتها ويؤكدها، والباقي سيتكلف به هو.. أعاد القاضي سؤاله بلهجة آمرة :

ـ هل كنت تعلمين بما خطط له جمال؟

ـ لا سيدي القاضي، لم أعلم بشيء، حتى قادني رجال الأمن إلى المركز للاستجواب.

ـ ألم تسأليه عن سبب اصطحابه لك إلى هنا؟

ـ لا سيدي القاضي، أنا لا أسأله غالبا، لأنه ما كان ليجيب، هكذا هو.

أمرهم القاضي بالانصراف في انتظار المداولة.

خرج مصطفى وهو ينظر إلى حليمة نظرات حادة، وداخله يفور غضبا، إنه لا يعلم حتى لم جاء ليشهد المحاكمة. كان بإمكانه ألا يحضر، ويتنزه عن مشاهدة هذه المسرحية، لكن لسبب لا يعلمه أصر على الحضور، بل وأصر على حضور نطق الحكم أيضا. أما جمال فتم أخذه إلى الزنزانة في قبو المحكمة إلى غاية الثالثة زوالا وقت النطق بالحكم، وجد جمال نفسه وسط ثلة من المجرمين الذين ينتظرون صدور الحكم في حقهم مثله، وقد كانوا يسألون بعضهم عما ارتكبوه، ويستجدون السجائر من بعضهم البعض، فلا شيء في تلك الزنزانة تنفق به الوقت وتخفف به الضغط غير شرب الدخان، ولو أتيحت لهم أشياء أخرى لما ثوانوا عن تجريبها. مع الثالثة أعيد السجناء إلى القاعة وشرع القاضي بنطق الأحكام تباعا:

ـ جمال بن عبد الله تسعة أشهر نافذة.

نزل عليه الحكم كالصاعقة، تعرق عرقا باردا كأنه سيق إلى المقصلة. لكنه تجلد حينما استدار لينظر إلى حليمة، تجلد حتى لا يحزنها. ثم ساقوه مع السجناء الآخرين ليودعوا السجن. وأطلق سراح حليمة

التي بدت أكبر من سنها بكثير، اختفت رشاقتها كأنها لم تكن يوما، بهت ذلك النور الذي يسطع من أديمها، تثاقلت حتى خطواتها، عادت إلى الفندق لتأخذ حقائبها، ووطنت نفسها على البقاء في البيضاء لتكون قريبة من السجن الذي سيودع فيه جمال...

سيق جمال مع بعض السجناء الآخرين إلى سجن "عكاشة". نبت أذناه عن كل الكلام الذي كان يدور بين السجناء، كان كله كلاما فاحشا بذيئا... فتحت البوابة الكبيرة، وشعر جمال أنه يودع الحرية، سيجرب الآن كل المشاعر التي قرأها في الكتب التي تناولت أدب السجون... ألفى نفسه في باحة السجن الأمامية بعدما أنزلوهم من السيارة وبدأوا بعدهم واحدا واحدا، وجعلوهم يصطفون لتجاوز تلك الأبواب السبعة، ودّ لو يدخلوا السجن من أبواب متفرقة، لكن أنى له أن يتحقق ذلك. بعدما تجاوزوا الباب الأول والثاني أخذوهم إلى حجرة التفتيش وطلبوا منهم نزع ملابسهم الخارجية والاحتفاظ بالملابس الداخلية، منهم من اعتاد هذا الضرب من التفتيش فطفق ينزع ملابسه بكل أريحية، أما جمال وسجين آخر فتحرجا من الأمر وعلت الحمرة خديهما.. لكن الحارس الذي يضع القفازين ويحمل مصباحا صغيرا بحجم القلم لم يكن بمزاج جيد يتيح له التضامن مع هؤلاء المساجين الجدد ويأخذهم بالرفق إنما صرخ في وجوههم صرخة وعيد وتهديد، فشرعوا في نزع ملابسهم الفوقية وبدأ الحارس في تفتيشهم تفتيشا دقيقا، وكم آلمه تفتيش الحراس له ، آلمه ذلك ألما شديدا. أحس بكرامته تضطهد، ولأول مرة يلعن فيها حليمة في

خياله. انتهوا من تفتيشهم وقدموا لكل سجين غطاء، وقادوهم لزنزانة من الزنزانات المكتظة في انتظار توزيعهم.

لم يكن توزيعهم للسجناء على الزنزانات اعتباطيا، بل إنهم تعمدوا أن يأخذوا كل سجين إلى الزنزانة التي قد يوجد بها أمثاله، وقد كان هو أيسر حظا نظرا لملفه النظيف وملامحه التي تنفي عنه سلوكه مسالك الإجرام، فقد أسكنوه في زنزانة فيها بعض السجناء ممن يتوسم فيهم الخير وحسن السلوك..

ما إن دخل عليهم حتى قاموا لاستقباله، تكون سعادة هؤلاء السجناء كبيرة حينما يفد عليهم وافد جديد، لأنه يكسر بعض الرتابة التي يعيشونها، ويتيح لهم سماع قصة جديدة ينشغلون بتحليلها ومقارنتها بقصصهم، لم تكن به رغبة للحديث لكنهم ألحوا عليه إلحاحا شديدا فأبى، فنطق أحدهم:

ـ دعوه وشأنه، مع الأيام سيجد نفسه مضطرا للكلام.

استجابوا لدعوة الرجل، وتركوه وحده يرتب موضعه الصغير، فهمس أحدهم في أذنه:

ـ عامل "بوذراع" باحترام، إنه رئيس الزنزانة وهو الذي ينظم أمورها، ولا أنصحك بمخالفته. لكن "بوذراع" هذا لم يتسلط عليه يوما لأنه كان تحت حماية أحد الحراس الذين يقومون بشؤون السجن، هذا الحارس اسمه محمد، وقد كان طالبا معه بالإجازة والتقى به منذ يومه الأول بالسجن..

ارتمى في موضعه وحاول أن يقبض على أي إحساس كيفما كان بداخله، لكن كل حواسه كانت معطلة، إنه أشبه بإنسان ميت.

سرعان ما أمسى يندمج مع هؤلاء السجناء وعرف أسماءهم وشارك معهم قصته وقد حذف منها ما شاء وأبقى على ما شاء. كبر في أعين البعض ممن قدروا انتصاره للعطف الأمومي، وصغر في عين البعض ممن رأوا أن تضحيته من أجل المرأة ضرب من العبث وضعف لا يليق بالرجال.

شخص واحد فهم تضحيته وهو يونس، لأن له عقل فيلسوف. فهو أستاذ فلسفة سجن لاتجاره بالمخدرات... ناقش تضحية جمال معه نقاشا أثلج صدره وجعله يكن له الكثير من التقدير، وكم ذهل بقية السجناء، وهما يتناقشان بذلك المستوى الراقي الذي لم يفقهوا الكثير مما جاء فيه، ولأول مرة علم السجناء أن يونس إنسان مثقف وفي جعبته الكثير، وإنما كان يسايرهم فقط في بلاهتهم ومواقفهم وأحاديثهم التافهة...

طلب جمال من يونس أن يعيره مذكرته، فخصص لنفسه بعض الصفحات في آخر المذكرة وكتب:

ـ أي عالم هذا الذي أقحمت فيه، أو قل إني أقحمت نفسي فيه. كيف فكر الإنسان في بناء السجون بهذا النظام المقيت؟ كيف فكروا في معاقبة الآثمين بسلبهم حريتهم؟ هل الحرية فعلا هي أثمن ما يملك الإنسان؟ ماذا عن المجنون والمشرد أليسا يمتلكان الحرية؟ لكنهما

أسوأ حالا من كل هؤلاء النزلاء؟ ليس سلب الحرية إذن هو العقاب الحقيقي، بل ما يترتب عن سلبها. تلك الأحاسيس المرهفة المتدفقة التي تتخشب، ورؤيتك الشمس من النافذة فيخيل إليك أنها تبتسم، بحثك عن القمر من خلال النافذة فلا يتاح لك رؤيته، لأنه قد يخذلك ويستقر فوق الزنزانة. تلك الرغبة التي تشتعل بداخلك فلا يطفئها إلا النظر إلى وجه امرأة، وذلك الحنين إلى سماع صوت أنثوي حالم، تلك الأشياء التي لا وجود لها هنا..

لم يكن بإمكان حليمة أن تزوره في السجن لأن زواجهما كان عرفيا فقط، ولا وثيقة تثبت زيجتهما. لذا كانت تكتفي بإرسال ما استطاعت إرساله من مواد غذائية له من حانوت المؤسسة السجنية، لكنه على أية حال كان يمكنه أن يزهد فيما ترسله، لأن يونس كان يتقاسم معه ما يتلقاه من الخارج، فقد كان يستطيع طلب ما يشاء من حانوت السجن، لأن عائلته أودعت مبلغا كبيرا من المال في الحانوت يسمح له بأخذ ما شاء. وأغلب الظن أنه راكم ثروة من التجارة بالممنوعات لأنه كان يبذر تبذيرا ويسرف في اقتناء أشياء كثيرة. أخبره جمال أنه بحاجة إلى دفتر ليكتب بعض الرسائل، وبعض الخواطر بين الفينة والأخرى... أبدى يونس موافقته وقال له:

ـ لا عليك. ذلك أيسر ما تطلبه

ـ شكرا يا يونس، لن أنسى لك صنيعك ما حييت.

ـ على الرحب والسعة.

جاءه يونس بدفتر وقلم، وسعد بهما أيما سعادة، كسعادة طفل صغير بهدية العيد،

مع توالي الأيام ساءت حالته بين هذه الجدران، لم يتخيل يوما أن تجريده من حريته سيؤدي به إلى مثل هذا الجنون، تأتي عليه لحظات يبلغ به اليأس فيها حد تسفيه تضحيته التي تصورها يوما عظيمة أيما عظمة. نفسه تتوق للكثير بين هذه الجدران. يود لو يركض دون توقف إلى ما لا نهاية..

عبثا يحاول أن يصد تفكيره وانشغاله بالعام الخارجي. استلقى على سريره الذي ما فتئ يفارقه في الآونة الأخيرة، طفق يفكر في أشياء كثيرة لا حصر لها، لكن أمله بالتواصل مع العالم الخارجي ظل أكثر ما يشغل تفكيره. أراد أن يعلم حال من تركهم وراءه: حليمة، مريم، وأي منقلب انقلبت أسرته من بعده، يا له من ظالم لنفسه ولأهله، تساءل بينه وبين نفسه كيف تأتى له أن يسقط أسرته من باله هكذا؟ كيف شغله الحب عن رابطة الدم؟ اعتراه شعور بالذنب السحيق، واعتصر قلبه الألم، لعل قبوعه بهذا المكان فيه بعض من أوجه الخير على كل حال، فقد أتاح له ذلك أن يعيد التفكير في الكثير من الأمور التي لم يوليها اهتماما من قبل.

تذكر كتابا من الكتب الصفر التي كان قد قرأها عند سعيد فيما مضى، وحضره باب من أبواب الكتاب يتحدث عن استحضار جني مسلم اسمه حسن يقضي حوائج من يسخره لخدمته، ومن باب التسلية تمنى لو أن حسن هذا معه هنا ليحدثه عما يريد، ويقضي

عنه بعض الحوائج التي لا يجد إليها سبيلا، لكنه لم يؤمن يوما بتلك الخرافات، ولا صدق بها، حاول أن ينسى الأمر لكن الفراغ كان له بالمرصاد، ظلت فكرة تجربة استحضار حسن تراوده بين الحين والحين إلى أن تمكنت منه وتملكت فكره، قرر أن يقوم بالتجربة ففي ذلك تزجية للوقت، ومروق من أحاديث زملائه المبتذلة التي تجانب الصواب في كثير من الأحيان، ويكثر فيها الافتراء والبهتان، فطبعي أن يلجأ هؤلاء إلى الكذب واختراع الأمجاد والبطولات عن حيواتهم لأنهم يكونون قد استنفذوا كل الوقائع الصادقة من ذاكرتهم، فكل الأحاديث هنا أحاديث من الذاكرة لأن اليومي مستهلك، وتكاد أحداث اليوم تشبه أحداث الأمس في كل شيء..

انتظر مجيء يوم الخميس لأنه اليوم الذي يسمح لهم فيه بارتياد الحمام، اغتسل وقرر أن يشرع منذ فجر الجمعة في قراءة الأوراد والأدعية لاستحضار حسن، صلى الفجر وتلا ورده وأدعيته، وعقد النية ألا يكلم أحدا عشرة ليال سويا كما تنص على ذلك طقوس الاستحضار، استغرب رفاقه بادئ الأمر حاله الجديد، إذ لم يكن يكلمهم إلا إشارة عند الاقتضاء فقط، واعتزلهم كما يعتزل السليم الأجرب، ولعل أستاذ الفلسفة كان أشد الناس استغرابا حتى أن استغرابه دفعه إلى الاعتقاد أن جمال أصيب بأزمة نفسية عقدت لسانه، لم يستشعر أي علامات في اليومين الأولين، وتأكد له ظنه القديم بتفاهات ما تضمه تلك الكتب، وزاد استهزاؤه بها، لكن تلك القناعة تصدعت أركانها في اليوم الثالث إذ رأى في نومه أطيافا

وحلم أحلاما غريبة هي أقرب إلى الواقع منها إلى الخيال، صارت هذه الأحلام والأطياف تكبر وتتطور كل يوم وعندما بلغ يومه الثامن اختفت تلك الأحلام والأطياف المختلفة الألوان، وحلم برجل واحد يتزر بإزار أبيض لكن بعضا من ملامحه لم تكن واضحة، استيقظ مذعورا مثل الليالي السابقة، فكر أن يتوقف لأن الأمر ينجح وليس محض خيال وخرافة كما خيلت له نفسه في البداية، لكنه خشي أن يتوقف فيعود لحاله السابقة حيث تمر عليه الدقائق ساعات والساعات أياما، سيعود ليجالس أولئك المساجين الذين لا تخلو أحاديثهم من التفاهة، والمجون، والكلام الساقط، قرر أن يواصل رحلته. أقنع نفسه لأن الأمر جدير بالاستكشاف وإلى جانب هذا فهو الذي لطالما سحرته الجوانب الروحانية منذ طفولته لقد كان سعيد مهووسا بكل ما هو روحاني وكثير الاطلاع فيه، ولعل شيئا من ذلك الهوس قد أصابه وتسرب إلى لاوعيه.

في اليوم التاسع بعد أن أطفئت الأنوار وشرع يتهيأ للنوم خيل إليه طيف ذلك الرجل مبسوطا أمامه، أمعن النظر، لم يخيل إليه بل إنه يرى الرجل فعلا وفي يقظته وليس في الحلم، أغمض عيناه مرارا ليتأكد أنه ليس في حلم، وأن الأمر لا يعدو الهواجس، وكان يجده ما يزال في مكانه، كيف تسلل هذا الرجل من الحلم إلى اليقظة؟ إلى الواقع؟ أتراه يكون حسن؟.

بحلول الصباح استيقظ مضطربا به شيء من الوجل، بدأ الأمر يصبح حقيقيا ويتعدى الأحلام للواقع، رغم ما ظهر عليه من اضطراب

فقد تجاهله رفاقه، إذ كانوا قد يئسوا منه واكتفوا بالهمس فيما بينهم حول ما صار عليه الرجل من غرابة الأطوار، كان قلقه واضطرابه يزداد كلما أزف المساء..

أطفئت الأنوار في وقتها المحدد، وسكن الليل، شعر برهبة جديدة، وكيف لا يشعر بذلك وهو على وشك أن يتعامل مع تلك المخلوقات النارية التي يبث مجرد ذكرها الرعب في القلوب، بعد فترة من السكون المخيم على المكان رأى الشاب نفسه من الليلتين الماضيتين يقف أمامه، وهو أكثر وضوحا وبهاء، شاب وسيم، حسن تقاسيم الوجه، تعلو محياه ابتسامة لطيفة، معتدل الطول، نحيف البنية، نظر إليه الشاب ثم قال متبسما:

- السلام عليكم

-ظل ينظر إليه مبهوتا، جال بنظره في الزنزانة ليرى هل استشعر من معه حضور هذا الضيف أم لا، لكنهم جميعا كانوا مستغرقين في سبات عميق ولو كان معهم كلب باسط ذراعيه بالوصيد لظننتهم فتية الكهف.

لاحظ حسن ذهوله، ولعله تعود هذه الحال من الصدمة مع كل الذين يستحضرونه، ربت على كتفيه يطمئنه ويشد أزره ثم قال :

- آن لك أن تتحدث يا جمال فقد انتهى صيامك عن الكلام المباح
- هل أنت حسن ؟

- نعم أنا حسن، أتراك تشقى في استحضاري كل هذه الأيام ثم لا تتعرف علي؟
- أسف إن ذهني مشوش.
- صدق أني مشوش أكثر منك، إن كل الذين يستدعونني إنما يفعلون ذلك من أجل أن أمدهم كل يوم بنفقة تيسر لهم عيشهم، لكن أن يستدعيني مسجون فهذا ما لا أفهمه ! فلا حاجة لك للمال لأنه يحظر تداوله في مثل هذه الأماكن؟ فلما استدعيتني إذن؟
- لا أريد نفقة، إنما أريد أن تساعدني في الاتصال بالعالم خارج هذه الأسوار.
- ما تطلبه ليس من اختصاصي، وإن كنت قادرا على فعله، إني أفضل أن أضع لك نفقتك تحت الوسادة خلسة على أن أطوف بك خارج أسوار السجن، فتأخذ من وقتي الكثير..
- إن كانت نفقة اليوم هي كل ما ستقدمه لي، فلا حاجة لي بذلك هنا كما ترى لأن هناك من يحل مكانك ويطعمنا من غير ثمن، فلننهي المسألة إذن حتى لا أخذ من وقتك الثمين أكثر مما أستحق.
- على كل حال فقد ضيعت معك وقتا، فأنا أهيئك لمثل هذا الموقف منذ عشر ليال، وليس من المعقول أن نخرج بخفي حنين، ستكون استثناء، فلنبرم اتفاقنا بأسرع ما يكون فإن شخصا آخر بانتظاري.
- حسنا (نطقها وهو يبتلع ريقه).

- سأعطيك وردا تستدعيني به، وإياك أن تستدعيني نهارا فتفسد علي يومي، أو تقطع علي إحدى الأعمال؟
- اتفقنا
- لم نتفق بعد إني لم أخبرك بما ينبغي عليك فعله مقابل خدماتي، ستصلي صلاة الصبح كل يوم في وقتها المحدد دون تأخير أو تغيب، وإن فعلت، ولا ينبغي لك أن تفعل؟ بطل العهد الذي بيننا، وأبيح لي أن أعاقبك
- هل تعني أن هناك عقابا إن أخللت بهذا الاتفاق؟
- بالطبع يا سيدي أما رأيت أنكم أنتم البشر أيضا تجعلون للعهود والاتفاقات بينكم عقوبات تزجر من يخل بها؟ فكيف تتوقع أن يكون هذا الاتفاق بلا تبعات؟

استسهل الأمر، فصلاة الصبح في وقتها ليست بالشيء العسير، ففي كل الأحوال هي فرض من الفروض التي ينبغي أن يحرص الإنسان على تأديتها، ولطالما كان حريصا عليها بالأمس القريب، لكنه تذكر أمرا رابه فاستفسر حسن :

- لكن ماذا إن استبد بي النوم ولم أستيقظ في الوقت المحدد؟
- لا تخشى من ذلك، أنا أوقظك من نومك وأنبهك لفرضك
- دعنا نمضي الاتفاق إذن.

أخرج حسن من جيبه وثيقة أشبه بالمخطوطات القديمة، وأمسك بإبهام جمال، فشعر كأن دبوسا غرز فيها ثم رأى قطرة دم في إبهامه فصاح بحسن :

- ماذا تفعل ؟
- نختم على الاتفاق ووضع إبهامه على الورقة

استرد يده وخاطب حسن بلهجة حادة :

- ألم تجد شيئا آخر تختم به غير الدم
- هكذا نختم نحن عقودنا. نختمها بالدم لأن الدم أقوى حجة وأظهر برهانا.

أعاد الوثيقة إلى جيبه، وصافح جمال قائلا :

أخلد للنوم ينبغي أن تستيقظ للصلاة، ثم اخترق السقف واختفى، أجال نظره مرة ثانية في رفاقه لعل أحدهم يكون قد شهد هذا الحدث، لكن لا أحد منهم أحس بما جرى ولا شهد هذه الواقعة، ظل يحملق في السقف وأفكار لا حصر لها تتجاذبه..

عاد لحياته العادية بين رفاقه وإن كان قد أضحى قليل الكلام، صار يستدعي حسن كل ليلة فيأخذه أنى شاء لساعة من الزمن، استدعاه في الليلة الأولى فطلب منه أن يسافر به عند أهله، اطمأن عليهم ورآهم في مضاجعهم نياما، ود لو يحرره حسن هناك، ويبقى بلا عودة، تمنى ذلك من كل قلبه حتى أنه استدار عند حسن وخاطبه قائلا :

- ليتك تتركني هنا يا حسن؟ لو تدري كم أذنبت في حق أهلي، غادرتهم لأني ظننت أني خيبت آمالهم لكني ما فعلت إلا أن زدت في خيبتهم باختفائي.
- تطلب أمرا مستحيلا يا جمال، لا تصدق أنك هنا بالكامل، عقلك فقط من هو هنا، أما جسدك ففي الزنزانة، ولو نفذت طلبك، وهو ما لن أفعله لاستيقظت صباحا في زنزانتك بدون عقل..

نظر إليه حسن مشفقا، ثم قال :

- هيا بنا يا جمال فلنعد، أزف وقت الرحيل..

أعاده حسن إلى زنزانته وأوصاه بالاستيقاظ للصلاة، لم يكن هناك من داع لتلك الوصية فقد ظل جمال يتأمل فيما صارت إليه حياته حتى حان وقت صلاته. وفي الليلة الثانية استدعى حسن مرة أخرى، وطلب منه أن يأخذه لرؤية مريم، تبرم حسن من طلباته وانتابه شيء من الندم لقبوله بهذا النوع من الميثاق مع جمال، فهو يستنفذ منه الكثير من الوقت، ومن يدري أي أماكن يطلب زيارتها بعد أن يزور الذين اشتاق إليهم، فقد يأتي يوم يطلب فيه

زيارة المطاعم والفنادق لغرض التسلية فقط، لكن لم يكن يستطيع أن يرفض له طلبا فبينهما ميثاق غليظ، حمله حسن عند مريم، في لحظات فقط كان يقف عند رأسها، ذهل بادئ الأمر، فنظر إلى حسن مستفهما :

- إنها نائمة لوحدها ؟ أين زوجها ؟ أيكون مسافرا ؟
- لا شأن لي بذلك يا جمال، لكني لا أظنه مسافرا فالسرير ليست به إلا مخدة واحدة، وخزانة الملابس لا تحتوي إلا ملابسها.

تظاهر كأنه لم يسمع حسن واكتفى بالنظر إلى أديم مريم، إنه لم يحب ويعشق امرأة قط كما أحب وعشق هذه المرأة، تمنى لو يرتمي في حضنها ويقطع ذلك الحبل الذي يربط بين عقله وجسده، تمنى لو يختفي حسن وأن يبقى في حضنها، يبقى للأبد...، أيقظه حسن من أحلامه مربتا على كتفه :

- فلنعد يا جمال، انتهى الوقت

ساعة كاملة وهو يتأملها، مضت كلمح البصر، وليس هذا بالشعور المستجد بالنسبة إليه، فكل الأوقات التي قضاها مع هذه الغادة كانت تمضي سريعا، حتى أنه قال لها يوما إنهما لو أعطيا عمر نوح لأحس أن العمر معها قصير جدا..

بعد مريم زار هبة في منزل والدها ولم يفكر في زيارة حليمة، كيف يزورها وهو الذي صارع لينتزعها من قلبه انتزاعا، صحيح أنه أمضى معها أياما راسخة في الذاكرة لكن قلبيهما خارج السيطرة فكل

واحد منهما يهيم حبا بإنسان آخر، لعل افتراقهما فيه خير كثير لكليهما وللآخرين..

داوم جمال على تأدية فريضة الصبح لشهرين، ووفى حسن بجزئه من الاتفاق أيضا، فكان يأخذه أنى يريد كلما استدعاه، وبعدما كان جمال يستشعر مسؤولية العهد الذي بينه وبين حسن فيستيقظ ليؤدي صلاته دون مساعدة أو تذمر صار يثاقل في القيام للصلاة ولا يستيقظ إلا بمساعدة حسن، حذره حسن من التهاون الذي يصيب بني البشر فينزل بهم الآفات، لكنه لم يكن يأخذ تحذيراته مأخذ الجد، فقد ألف حسن وأحسن به الظن لدرجة يستبعد فيها أن ينزل به أي عقاب، ولعله من جهة أخرى لم تعد به تلك الرغبة الملحة في القيام بتلك الزيارات القصيرة التي لا يصحب فيها جسده، ولم تعد به تلك الرغبة لسماع الأخبار التي يحدثه بها حسن..

ذات ليلة تمادى في السهر وعندما أغمض جفنيه أسلم نفسه لنوم عميق، جاءه حسن فأيقظه ليؤدي صلاته. فتح عينيه لبرهة ثم أغمضهما وعاد لنومه، وعندما استيقظ صباحا تملكه بعض الخوف، وانتظر أن يحل به العقاب الموعود لكن لا شيء حل به، لكنه وطن نفسه على أن يؤدي الفريضة هذه المرة خشية أن لا ينجو مثل المرة السابقة، وذات ليلة أعاد الكرة نفسها، تغافل عن الصلاة، انتابه الخوف نفسه من عقاب يوقعه به حسن، لكن هذه المرة بدرجة أقل، ولم يحدث شيء، وبعد أيام قاده استصغاره للأمر، واستسهاله لأن يتخلف عن الصلاة مرة أخرى، وأصبح معافى لم يمسه أي سوء، ولم

يظهر حسن لأنه كف عن استدعائه منذ فترة، بعد ذلك اليوم قام ليصلي فريضة الصبح فألفى حسن أمامه ثم توجه إليه قائلا :

- لقد استيقظت يا حسن، وكفيتك مشقة إيقاظي
- لم أت لأوقظك للصلاة، إنما جئت لشيء آخر

توجس جمال خيفة من قوله ونظر إليه بارتياب:

- ولأي شيء جئت ؟
- ستعرف بعد قليل

حمله حسن واخترق به السقف، وليس بالطريقة المعهودة، عرف أنه مسوق للعقاب لا محالة، لكن أي عقاب؟ ومن أي نوع؟

كان ذلك أغرب وأقسى عقاب قد ينزله جني بإنسي، فأن تطوف بإنسي حافي القدمين في الجبال والمسالك الوعرة حتى تدمى قدماه، فكرة لن تخطر إلا بعقل جني فعلا، توجه جمال بكثير من اللوم والعتاب لحسن، لكن الأخير ظل على موقفه، وأكد له عجزه على رفع هذا العقاب عنه بعدما ضيع الفرص الثلاثة التي وهبت له..

أفسد علي حسن حياتي، النزلاء يتهمونني بالجنون، أو ذلك ما يخيل إلي؟ إنهم يتهامسون بخصوصي في كل حين، حتى يونس صار ينظر إلي نظرات تشي بالإشفاق، أحس به كل مرة يريد أن يبادرني في موضوع ذي خطر فيتراجع في اللحظات الأخيرة، هل من الممكن أن يكون أحدهم قد استشعر ذات مرة وجود حسن؟ أو لعل أحدهم لم يعثر لي على أثر في إحدى سفرياتي مع حسن؟ هذا غير ممكن، حسن أكد لي أن عقلي من يسافر، أما الجسد فلا يبرح مكانه، الأمر يزداد خطورة حتى الحراس صاروا يرمقونني بنظرات مريبة، لكن العجب كله قد انتفى حينما جاء أحد الحراس واقتادني إلى طبيب السجن، طبيب بلغ من الكبر عتيا، قصير القامة أصلع الرأس منتفخ الوجه كثيف الحاجبين، مقطب الجبين، بينه وبين الابتسامة عهود طويلة، ولو التقيته دون وزرة لأقسمت بأغلظ الأيمان أن لا صلة بين الرجل وبين الطب، بعد أن دلف بي الحارس إليه، جلست على الكرسي أمامه أصطنع الهدوء، ظل يتفحصني بعينين ثاقبتين دون أن ينبس ببنت شفة، إلى أن قرر أن يفاجئني بسؤال أوقع في نفسي بعض الارتباك:

- هل تعاني من مشاكل في النوم؟

خيل إلي أنه يعرف بأمر حسن؟ لكني تمالكت نفسي، أجبته بالنفي وأني على ما يرام، بدا عليه الانزعاج، وكأنه كان ينتظر أن أوفر عليه عناء التشخيص، أضاف :

- وماذا عن قدميك؟
- مجرد تورمات فقط، أنا على ما يرام.

كان مستعجلا لكتابة الوصفة ليتخلص مني بأسرع الوقت، كان ضيق الصدر وكأنه سئم هذه المواقف، نظر إلي نظرات فاحصة وانكب على الورقة يسود صفحاتها، نادى على الممرض وناوله الورقة، وطلب منه أن يمدني بجرعة الدواء الأولية، وحدد لي ابتلاع قرص مع الصباح وآخر في المساء، كان هذا أغرب كشف نفسي أراه في حياتي أو أسمع به، ناولني الممرض القرص وكوبا من الماء فابتلعته في استسلام، وعاد بي الحارس إلى الزنزانة، تحاشيت الحديث مع الكل واستلقيت في فراشي، اقترب مني أيوب، وهو نزيل معي في الزنزانة، وقال لي بصوت لامست فيه الكثير من الشفقة والصدق، هل تناولت القرص، نظرت إليه باستغراب وقلت:

- نعم، وما أدراك؟

فقال لي بكل عفوية :

- تناولتها عند مجيئي لهذا المكان أيضا، صدقني ستفيدك كثيرا، ستتبلد مشاعرك، وتهدأ أعصابك هدوءا عجيبا كأنها ليست بعضا منك، أما النوم فسترقد رقود أهل الكهف، وانطلقت منه ابتسامة ساخرة بل ابتسامة المجرب، ثم أضاف لولا قرحة المعدة التي ألقى منها نصبا ما انقطعت عن تناول تلك الأقراص، وأغلب الظن أنها هي التي تسببت لي بهذه القرحة، أو قد يكون شبه الطبيب ذاك كذب فقط ليحرمني منها،

سرني حديث أيوب كثيرا وتشجعت لسؤاله، أتراني مجنونا يا أيوب؟

- لا عليك، أنت بألف خير إن ما يحدث معك شيء قد يصيب كل محروم من حريته، ولو دققنا في كل النزلاء لوجدنا أنهم جميعا بهم شيء من اللمم، صحيح أنك تتحدث بأحاديث غريبة كل ليلة، إلا أن الأمر لا يدعو للفزع ستتجاوز الأمر، فقط تغاضى عن نظرات الآخرين وتناول أقراصك بانتظام دون غش. انصرف أيوب، وتركني في دوامة من الدهشة، وعدم التصديق، كيف يسمعون أحاديثي، هل حسن يتلاعب بي، أم أنه أخفى عني شيئا ما..؟

سرعان ما انصرف ذهني إلى أيوب، وأجل مشكل حسن فأنا ملاقيه على كل حال، يذكرني أيوب بالنبي أيوب الصابر، فكلاهما ابتلي ابتلاء عظيما يحتاج الكثير من الصبر، فقد حكم على أيوب بخمسة وعشرين سنة سجنا نافذا، قضى منها خمس عشرة سنة لجريمة قتل هو منها براء على حد قوله، وأنا أصدقه، بل وكل من يعرفه يؤمن ببراءته فليس أيوب ممن يجرؤون على القتل، كان ذنبه الوحيد هو وجوده في المكان الخطأ وفي الوقت الخطأ، فقد حدث ذات يوم أن كان راجعا من سهرة مع أصدقائه، وعندما كان يمشي في الظلام صوب منزله، فوجئ بجثة رجل ممدة أمامه وسط الطريق، كان أديم الرجل محشوا في التراب فحاول تعرف من يكون، كان رجلا من قريته، أحس بسائل في يديه ، تأكد أنها دماء، كان الرجل مذبوحا، اشتد به الفزع فأطلق ساقيه للريح، كادت روحه تخرج من الفزع، وقف قرب منزل يعرف صاحبه وطرق الباب لعله يصيب شربة ماء قبل أن تزهق روحه من الفزع، فتح صاحب الدار الباب ورابه حال أيوب، إذ كان يلهث كأنه فر من ساحة الحرب، طلب منه أيوب

شربة ماء فأتاه بها صاحب الدار على عجل، أعاد له الإناء وانطلق راكضا يدفعه الخوف وهول المنظر البشع الذي رآه، وفي الغد اقتاده رجال الدرك ولفقوا له تهمة القتل، كانت كل الظروف ضده، فقد اتهمه أبناء القتيل بناء على عداوة قديمة بين العائلتين، وشهد الذي سقاه شربة ماء أن يديه كانتا ملطختين بالدماء، بل قدم حتى الكوب الذي كانت عليه بعض أثار الدماء للدرك، وإني أعجب كيف ظل صامدا حتى الآن بين هذه الجدران !

جفاني النوم هذه الليلة، لم يغمض لي جفن، خشيت أن أتحدث في نومي مرة أخرى، ربما أردت أن أوهم رفاقي في الزنزانة أن القرص أعطى مفعوله، حتى لا يظنوا بي مزيدا من الظنون، انتظرت مجيء حسن، النوم من أكبر النعم التي أنعم بها الله على الإنسان ولا يعرف قيمته إلا من كابد الأرق، جاء حسن، أراد أن يمسكني من كفي ليجول في قفاره، لكني تمنعت، فوجم كأنه لم يكن يتوقع مني هذا التمرد، فقال زاجرا:

- لا تجبرني على تعنيفك.

قلت له باستياء: الكل يرميني بالجنون يعتقدون أني أعقد حوارات غريبة في منامي وأني كثير التفحص لرجلي، ألم تخبرني أن لا أحد سيلاحظ شيئا؟

- بلى، أخبرتك بذلك، هم لا يعرفون شيئا، كل ما في الأمر أن بعض الأحلام والكوابيس تروادك قبل مجيئي فتصدر أصواتا فيها، وهذا شيء يحدث مع الجميع.

- لكن هذا لا يحدث مع الجميع كل ليلة؟

لم يرد على سؤالي، جذبني بعنف من كفي واخترق بي السقف نحو القفار لأصيب حظي من الضنك والعذاب..

في الصباح زارني الحارس صديقي من أيام الدراسة، أراد أن يطمئن علي، لأول مرة يتحدث معي بنفس الأحاديث التي كنا نتبادلها في الجامعة، كان هذا كافيا ليشعرني أنه مشفق علي، لم أبدي أي امتعاض، على كل فقد قدم لي خدمات كثيرة وكان دائما ما يوصي بقية الحراس بأن يتلطفوا في معاملتي، وهذا صنيع أدين له به،

انصرف صديقي الحارس، وعدت لفراشي أحاول أن أصفي ذهني وأضع سدا بيني وبين كل الأفكار، إن أصعب ما قد يحاوله الإنسان هو أن يتوقف عن التفكير، عملية شاقة تكلف جهدا كبيرا، وتحتاج تمرنا طويلا، تذكرت بعضا مما قرأته عن أولئك الرهبان المنشغلين بالتأمل، كم من الوقت لزمهم لكي يصيروا بتلك البراعة في صد كل الأفكار المشوشة على صفاء الذهن؟ لا ريب أنهم أفنوا نصيبا من عمرهم يتمرنون لكي يحظوا بهذه اللحظات من الصفاء؟، ومن حيث لا أدري عدت للتأمل في قول نيتشه بأن المجنون هو الذي فقد كل شيء إلا عقله، صحيح أني رددت هذا القول كثيرا، ربما كنت أردده لمكانة نيتشه من نفسي وإعجابي بفلسفته، لكن هذه أول مرة أتأمل فيها قوله هذا، وأحاول أن أجد نفسي فيه، فأنا فقدت كل شيء، العمل، العلاقات.. كل شيء، وفي الطريق لأفقد عقلي أيضا، إذا كان المجنون هو من فقد كل شيء إلا عقله، فماذا كان نيتشه ليقول فيمن فقد كل شيء وفقد عقله أيضا؟.

أين صفو الذهن الذي كنت أنشده؟ استلقيت لعلي أصيب شيئا من هذا الصفاء، وانظر أين سرحت؟ حري بي أن أتوقف عن التفكير بهذا الشكل، ربما أحسن ما أقوم به أن أقرأ كتابا، فقد أحضرت بعض الكتب من مكتبة السجن، إن أفضل ما في هذا السجن مكتبته، لكن للأسف لا أحد يقرأ، الكتب يعلوها الغبار، وإن عثرت على قارئ وذلك نادر الحدوث، فإنه يقتصر في قراءته على الكتب الدينية فقط، لعل أولئك يبحثون عن الطمأنينة التي يسلبها منهم هذا المكان في تلك المؤلفات، ولعلي أفعل ذلك أنا أيضا فقد قرأت الكثير من الكتب الدينية، كانت قراءتها تعود بي لذلك الزمن الجميل حينما كنت بفاس، كم أحن لتلك الأيام؟ ليتني اتخذت قبو ذلك المسجد سكنا مدى الحياة، كانت أجمل أيام حياتي هناك، لا شيء كان يكدر صفو حياتي، كان كل شيء بسيطا لا تعقيد فيه، كانت حياتي تتمحور بين الجامعة والمسجد، كنت إنسانا آخر غير الذي كنته قبل ذهابي إلى فاس، وغير الإنسان الذي أنا عليه الآن.

طرأت على حياة مريم الكثير من التغيرات بعد اختفاء جمال، طلقت زوجها، وتمردت على أهلها حتى صاروا يخشونها في كل شيء، وتركوا لها حق التصرف في حياتها، بحثت عن جمال في كل مكان وسألت عنه كل من تعرفه دون جدوى حتى أنها زارت أهله تسأل عنه فلم يفيدوها بشيء، لأن جهلهم بمصيره لم يكن بأقل من جهلها، انطوت على نفسها وكرست نفسها للتفاني في عملها دون أن يكدر صفو حياتها مكدر غير انشغال بالها بجمال، وبأي مصير ألقى بنفسه إليه.

ذات يوم كانت تسير بشوارع المدينة مطرقة، وتلك عادة اكتسبتها من جمال، وهي تسير شعرت بيد تمسك بكتفها وحينما استدارت تفاجأت، إذ كانت هذه اليد لزميل كان يدرس معها بسلك الإجازة، ثم التحق بالإدارة العامة لإدارة السجون كحارس سجن، حياها وتبادلا بعض أطراف الحديث الذي دار جله حول أيام الدراسة وطرائفها، جنح عن قصد لذكر جمال إذ لم يكن يخفى عليه ما كان بينه وبين مريم من عشق وهيام، شعرت مريم بانقباض في صدرها. حرك ذكره في قلبها لواعج لا حصر لها، أخبرته أنها لا تعلم بمكانه وأنه اختفى ذات يوم دون سابق إنذار، حدثها بخبره وأنه سجين بالمؤسسة السجنية التي يشتغل بها، نزل عليها الخبر كالصاعقة، انتابها ذهول عظيم، ولو كانت ذات حمل لأسقطت حملها، قالت:

- كيف حدث ذلك يا محمد؟

- علمت منه ومن ملفه أنه سجن لمحاولته اختطاف فتاة صغيرة.
- هل تعني أن جمال صار مجرما؟
- صدقي أني استغربت أشد الاستغراب حينما رأيته بالزنزانة، حتى أني كدت أنكر أمره في بداية الأمر، إذ رابني أن يوجد جمال في مثل ذاك المكان، وهو الذي كان طالبا ألمعيا، وأستاذا طيب السجايا ذا علم وفير..

قدر محمد فجيعة مريم ومنحها بعض الدقائق من الصمت لتستجمع قواها، بعد أن هدأ روعها طلبت رقم هاتفه، وسألته إن كان بإمكانه أن يرتب لها زيارة له دون أن يخبره بذلك، لأنه إن علم سيرفض مقابلتها، أخبرها أنه سيحاول ذلك، وافترقا على أمل ترتيب تلك الزيارة..

عادت إلى البيت وما إن دلفت إليه حتى هرولت إلى غرفتها وهي تبكي، تبعتها أختها لتتبين الأمر، أما الأم فقطبت جبينها، فقد أنبأها حدسها أن هناك ريبا ما، حاولت أختها أن تهدأ من روعها فضمتها إليها وهي تحاول أن تتبين الأمر فأنشأت مريم تقول:

ـ لقد علمت أن جمال مسجون بالبيضاء؟ ماذا لو كنت قد جنيت عليه، وهو الذي غمرني بحنانه الفياض؟

ـ وبأي شيء جنيت عليه، فلست سببا في سجنه.

ـ أنا السبب في رحيله.

ضمتها أختها بقوة أكبر، وأخذت تمسح الدموع من على وجنتيها..

ـ أي امرأة أنا؟ وأي حيف ألحقته بجمال؟ إني لا أصدق كيف تخليت عنه بتلك السهولة. كيف فكرت أن أرضيكم وأعصيه؟ كان الأولى أن أرضيه وأعصيكم، لأنه أحبني كما لم يحبني أحد. فلو كنت عصيتكم أنتم وبقيت معه لقاطعتموني وتنكرتم لي، لكن هو لم يفعل رغم كل الألم الذي ألحقته به، أليست هذه أعلى مراتب الحب؟

شعرت أختها ببعض الحرج لأنها كانت من الذين شاركوا في فرض ذلك الزواج عليها، مددتها بلطف على السرير، وغادرت الغرفة. ألفت والدتها مقطبة الجبين تنتظر أي خبر، فهي لم تعد تستطيع ان تتحدث إلى مريم حول أي موضوع حساس، أو أن تملي عليها رأيا كما في السابق، فقد تخسرها في أي وقت..

مضت أيام لم تتحدث فيها مريم إلى أحد، إلا ما كان للضرورة، حصلت على رخصة مرضية قدمتها للإدارة بعدما اتصل بها محمد وأنبأها بأنه رتب لها زيارة لجمال. بعد أيام كانت بباب السجن تنتظر محمد ليصحبها إلى قاعة الزيارة. لم تطل غيبته بل أسرع في الخروج بعدما هاتفته، لعله كان تواقا لأن يشهد هذه الوقيعة. اقتيد جمال لقاعة الزيارة، رابه هذا الأمر، خاف أن يكون أحدا من أسرته هو الزائر، مادام لا يسمح بالزيارة إلا لأسرة السجين، ما إن دلف من باب القاعة ورأى مريم حتى تجمد في مكانه. دفعه الحارس كأنه يدحرج صخرة، حتى بلغ به الكرسي المقابل لمريم فأجلسه على الكرسي، وتراجع للوراء.

أمسكت بيده فسحبها بخفة، لم تأبه لذلك. نظرت إلى عينيه وقالت:

- كيف دخلت السجن؟ كيف صرت هنا يا جمال؟
- أظنك أخطأت يا سيدتي، أخطأت في الشخص لست أنا من تظنينه.
- قام لينصرف، أمسكت بيده وقالت
- ضيعتني ذات يوم. واليوم أنا لن أضيعك.

ما أكثر ما تستفزه كلمة ضيعتني هذه، لأنه لا يؤمن أنه فعل ذلك يوما، إنما هي التي أضاعته، أراد أن ينضو هذه التهمة عنه ويلبسها إياها، لكنه عدل عن ذلك. طلب من الحارس أن يعيده لزنزانته، وترك مريم جامدة كصنم..

حاولت أن تتفهمه على مضض. غادرت قاعة الزيارة وقلبها قد اعتصره الألم. طلبت من محمد أن يمدها بتاريخ الإفراج عنه، غادرت ودمعة رقراقة تتعلق بأهدابها التي ترخي بظلال وارفة على وجنتيها..

إلى مصطفى :

ارتأيت أن أناديك باسمك مجردا، وأرجو ألا تزعجك هذه الرسالة التي ترددت كثيرا في بعثها إليك لأيام، لكن خاطرا ألح علي لبعثها لعلها تحدث فرقا. إني أراسلك كما تعلم من خلف القضبان التي زججتني خلفها، ولست أريد هنا أن أعذلك، بل إني ألتمس لك كل الأعذار، لأن ما فعلته كان ليفعله أي شخص كان مكانك. إني أقبل الاعتراف بأني مذنب، ولعلك رأيت أني اعترفت بمحاولتي خطفي ابنتك أمام القاضي، ولم أنكر من ذلك شيئا، لأني آمنت وما زلت أؤمن أن من حق الأبناء أن ينشأوا مع الأب والأم معا، حتى لا يكبروا والنقص يعتريهم.

إني أعلم يا مصطفى أنك لم تتزوج امرأة بعد حليمة، لأنك أحببت أن تفرد حبك ووقتك لابنتك، حتى تعوضها عن كل نقص محتمل. وأعلم كذلك أنك ما زلت تحب حليمة، وقد تتساءل أنى لي أن أعرف أنك ما تزال تحبها، وأنك تعجز عن لعب دور الأب والأم معا. أقول لك إن حبك لحليمة إنما يكشفه غضبك في المحكمة، ونظراتك الحائرة إليها، ولقد شعرت أنها خانتك وأسلمت نفسها لرجل آخر، كان ذلك بينا، ولم تستطع إخفاءه. أما عن فشلك –وسامحني على استعمالي لهذه الكلمة- في تعويض هبة عن حرمان الأم، فإنه يكفي أن تنظر إلى عينيها فقط لترى كم تشتاق لأمها التي لا تعرفها إلا في الصور.

هبة تخاف يا مصطفى أن تحدثك عن شوقها لأمها، لأن مجرد ذكر اسمها أمامك يجعلك منقبض الصدر، وقد تعلمت المسكينة أن تكتم

شوقها، وإن كنت لا تصدقني فانظر إلى خزانة ملابسها، ستجد علبة سوداء بداخلها بعض صور حليمة التي ما تفتأ الصغيرة تنظر إليها خلسة كل ليلة..

هذا عن هبة، أما عن حليمة فإني أطمئنك أنها ما نسيتك يوما، أحبتك وما تزال، ولا أظنها ستنساك يوما. كنت أعرف أنها تراك فيّ عندما تضع كفها على خدي وهي تبتسم، كنت أشعر بها خائفة من أن تندثر ملامحك من مخيلتها، وأعرف كم كانت تتحسر في سريرتها على مغادرتها دون أن تأخذ صورة لك، وكيف كانت لتفكر في أخذ صورة لك، وهي التي ظنت أنك لن تزهد فيها بتلك السهولة؟

ملاحظة:

أعرف أنك تحب هبة يا مصطفى، فأرجو أن يتغلب حبك على نقمك من أمها. حاول أن تتحدث معها عن أمها وستتأكد مما أقول.

جمال

إلى مصطفى :

انتظرت ردا منك، لكن دون جدوى. أعرف أنك كتبت رسالة جهدت في كتابتها مثل ما يجهد التلميذ الذي انكب يسكب على أوراق الامتحان عصارة ذهنه، أعلم أن الأمر ليس بالهين بالنسبة إليك فأنت لا تعرف بعد حتى ما أريد، ولأي شيء أريد أن أدفعك. واسمح لي أن أتحدث إليك بوضوح هذه المرة، إني أريدك أن تسترد حليمة، ليس لأني أشفق عليك أو عليها، بل إن أكثر ما يدفعني لذلك هو رغبتي في أن تكبر هبة مع أمها، لأني أحببت هذه الطفلة الصغيرة، فأنا وإن كنت لم أرها إلا بضع مرات ، إلا أنني عرفتها دوما في عيون حليمة.. فما أكثر ما أبكاها الشوق لابنتها بشكل جلي، وإليك بشكل مضمر، وكنت أنا من يمسح عبراتها ويسري عنها. لم يتبق لي وقت كثير لأغادر السجن يا مصطفى، فابعث برد، وأرجو أن تصغي لقلبك بدل أن تعمل عقلك، فقد أضاع منك عقلك مرة حليمة فلا تكرر الغلطة نفسها.

ملاحظة:

أعرف أنك تظن أننا عشنا كعاشقين، وأن ذلك يجعلك تضمر لحليمة الكثير من البغض والعتاب، لكن تأكد أنها عاشت حياة شريفة، لأننا عشنا كما يعيش الأزواج، ولنا شهود شهدوا تلك الزيجة، لقد تزوجتها عرفيا كما فعلتما أنتما معا ذات يوم، ولك أن أدلك عليهم حتى يهدأ قلبك وتنتفي هواجسك.

من مصطفى إلى جمال :

لا أدري من أين لك بتلك المعلومات كلها وأنت محتجز، كيف تعلم أن هبة تحتفظ بصور حليمة في تلك العلبة؟ وكيف عرفت أني كتبت ردا إليك ولم أبعثه؟

أتساءل لما تفعل معي هذا؟ هل هذا كرم منك؟ ولم هذا الكرم وأنت خلف القضبان بسببي؟ كم أحاول أن أقنع نفسي بالارتياب منك، لكني لا أقدر على ذلك؟ لما لم تحاول أن تجمع بيننا من قبل فتنجي نفسك من القبوع في السجن؟ إن لي أسئلة كثيرة أعجز عن الإجابة عنها. ليتك لم تظهر أنت ولا حليمة، كنت أعيش أنا وابنتي بسلام.

مصطفى

إلى مصطفى :

أسئلتك مشروعة يا مصطفى ولا تثريب عليها. أعلم أني لو عرضت عليك هذا الحل منذ البدء، لكنت رفضت رفضا قاطعا. بل كنت لتتمادى في الرفض، اعتبر أن هذه العقوبة التي أمضيها هي الثمن الذي أطفأ حنقك وغضبك المتأجج. وأعلم علم اليقين أنك تتساءل بينك وبين نفسك عن إمكانية عودة حليمة إليك؟ تخشى أن ترفض، وأن تتشبث بالبقاء معي، لكني أطمئنك وأقول لك لا يشغلنك أمرها، فلا حاجة لها بي بعد أن رأتك ورأت هبة، إنها تحبك يا مصطفى، تحبك حبا طاهرا لا تشوبه شائبة، ولم تكن تتحرج من التصريح بحبها لك حتى وهي معي..

سأزورك في مطعمك ما إن يفرج عني. دامت لك المسرات ..

جمال

نوديَ عليه وبشره الحارس بانتهاء مدة محكوميته، شعر بانشراح كبير، وأقبل رفاقه يهنئونه على إطلاق سراحه، لكن لم يستشعر أي فرح، فهو إن أطلق سراحه من هذه الزنزانة، وحصل على حريته فإنه قد وقع في عبودية أكبر وأسر أخطر، أليس العقاب الذي ينزله به حسن أخطر من سلبه حريته ! ، عانقهم واحدا واحدا، وشكرهم على ودهم، زهد في كل شيء كان ملكا له في هذه الزنزانة، أحب أن لا يأخذ معه شيئا يذكره بهذا المكان.. رافقه الحارس إلى الخارج، خرج من باب السجن نظر إلى السماء واستشعر الحرية، تقدمت حليمة بخطوات سريعة منه، وعانقته وهي تبكي، عاملها ببرود ترك في نفسها ألما كبيرا، انهالت عليه بكثير من الأسئلة لم يجب إلا على بعض منها وتجاهل الأخرى، لكن لم تشأ أن تضغط عليه، تقدما قليلا ووجدا امرأة صبوحة الوجه تقف بجانب سيارتها، حيته وباركت له حصوله على حريته، لم ينكر معرفتها هذه المرة، فقد خمد ما كان به من غضب، عرّف المرأتين على بعضهما، دون أن يخبر أيّ واحدة عن ماهية الأخرى، لكن كلا من حليمة ومريم عرفتا بعضهما، وعلم الله أحاسيسهما تجاه بعضهما..

ركب الثلاثة سيارة مريم وانطلقوا، جمال بجانب مريم في المقعد الأمامي وحليمة وحيدة في المقعد الخلفي، يبدو أنه منذ اللحظة بدأ يعيد الأمور إلى نصابها، جاش صدر مريم بأسئلة كثيرة لكنها خشيت أن تسأله فالتزمت الصمت، لكنها سرعان ما عدمت الصبر، خاصة أنه

لم ينبس ببنت شفة فسألته إلى أين يتوجهون، طلب منها أن تسلك الطريق التي يشير عليها بها، مرت الرحلة القصيرة من السجن حتى مطعم مصطفى في صمت ارتاحت فيه الشفاه وتعذبت فيها العقول، فلا واحدة من المرأتين تدري فيما يفكر جمال، كان قلب حليمة يخفق خفقانا شديدا، خيلت لها نفسها حينما بلغوا مطعم مصطفى أن جمال ينوي على الانتقام، وأن السجن أذكى فيه هذه الرغبة، دلف جمال إلى المطعم وتبعته مريم بينما ظلت حليمة قابعة في السيارة تدعو ربها أن لا يقع مكروه، فهي تحب كلا الرجلين ولا تريد أن يمس أيا منهما السوء، سأل جمال النادل عن مصطفى، فطلب منه النادل أن ينتظر قليلا ريثما ينادي عليه من المطبخ، لم تطرف عين لحليمة وهي ترقب هذا المشهد من خلف زجاج نافذة السيارة، كانت تخشى وقوع كارثة؟ بعد هنيهة خرج مصطفى وصافح جمال وطفقا يتحدثان، طلب منه مصطفى أن يتخذ لنفسه مقعدا رفقة السيدة التي معه، وسألهما ماذا يشربان، استأذنه جمال في أن ينادي على حليمة أولا، فقال مصطفى :

- وهل هي هنا؟
- نعم، إنها في السيارة، وإني أفضل أن تستقدمها أنت عوض أن أفعل أنا ذلك.

بينما توجه مصطفى نحو السيارة طلب جمال من النادل قلما وورقة، وطلب من مريم أن تملي عليه رقم هاتفها، دس الورقة في جيبه بعد أن دون عليها الرقم وعنوان أسرته، التحق بهما مصطفى

وحليمة التي بدت مذهولة مما يحدث ! أحست أن كل ما يحدث مجرد حلم سيندثر باستيقاظها، ابتسم مصطفى في وجوههم ثم قال :

- ماذا تطلبون؟

رد عليه جمال باتزان.

- لا نريد أكلا أو شربا يا مصطفى، لكن لي طلب واحد، أود لو أرى هبة قبل أن أرحل، ولعلك لا ترفض لي هذا الطلب فمن أجلها حدث كل هذا.

شعر مصطفى من كلامه وتقاسيم محياه بصدق كلامه وصفاء سريرته، ولأول مرة يعظم في عينيه، فقال دقائق وتكون معكم على الطاولة، ثم انصرف. انتظرت مريم بفارغ الصبر أن يحدث لها من هذه الأمور ذكرا، لكنه لم يفعل إنما أخرج ورقة من جيبه وأعطاها لحليمة قائلا:

- حليمة أعرف أني لم أستشرك في أي من هذا، لكني على يقين أن نفسك لطالما تاقت توقا شديدا لمثل هذا اليوم، احتفظي بهذا الرقم واتصلي بي يوما لتطمئنيني على حالك، وحال هبة إن أمكنك ذلك..

أي شعور يمكن أن تحس به حليمة في هذه اللحظة؟ وأي أفكار تتصارع في عقلها؟ الله أعلم بكل هذا، قالت له حليمة بصوت متهدج:

- هل كانت هذه نهاية خطتك التي لم تخبرني بها؟

- لم تكن هناك من نهاية لتلك الخطة يا حليمة، بل هذه نهاية صنعها القدر..
- وماذا ستفعل الآن؟
- سأنساك.

أفزعها قوله، خيل لها أنه رجل بلا قلب، لم تتوقع منه يوما أن ينساها، إنها لا تريد أن ينساها ولو افترقا وعادت لزوجها، تريد أن تكون حية دائما في قلبه، إنه حق مشروع نظرا لما كان بينهما من مودة وحب جامح.

قامت حليمة وأخذت ورقة وقلما كانا بالقرب من الصراف ودونت شيئا ما على تلك الورقة، ثم عادت إلى مكانها، وسلمت الورقة لجمال في غفلة من مريم، وفي غفلة منها فتح الورقة وإذا بها قد خطت عليها بعض الكلمات: إن كنت ستنساني فأنا لن أنساك، اعتني بنفسك، أحبك.

عاد مصطفى يحمل هبة بين ذراعيه، هبت حليمة تختطفها منه وهي تضمها حتى لتكاد تعتصرها وتمطرها بوابل من القبل وعلى خدها دمع أسيل، بدت في حالة هستيرية رقّ لها الرجلان ورقّت لها حتى مريم، ولعل هذا المشهد هو الشيء الوحيد الذي فهمت أطواره..

قام جمال من كرسيه وقامت معه مريم ثم صافحا مصطفى وغادرا دون أن تنتبه لهما حليمة التي كانت منشغلة بابنتها، استقلا السيارة، انتظرت مريم أن يبدأ الحديث ويضعها في السياق. نظر

إليها فإذا هي مقطبة الجبين في عينيها شرارة، كان فيما مضى تخيفه عندما يراها في هذا الوضع لأنه يمضي أياما كثيرة في استرضائها، أما الآن فقد زال منه ذلك الخوف. حرك المقعد إلى الخلف ليأخذ وضعا أكثر استرخاء وشرع يحدثها بالحكاية منذ البداية..

لم تحقد عليه رغم كل ما حدثها به، بل تمسكت به تمسكا شديدا وإن كان هو قد حاول أن ينفلت من القيد الذي أرادت أن تطوقه به، فقد أصرت عليه أن يتزوجا ويعيشا معا، حاول أن يثنيها عن هذه الخطوة لأن أمورا كثيرة قد تغيرت، لكنها كانت قد قررت أن تستجيب لنداء القلب فقط..

قالت دون أن تنظر إليه،

- ماذا عن تلك المرأة؟
- تقصدين حليمة؟
- وهل هناك غيرها؟
- ما الذي يقلقك بخصوصها؟
- هل أحببتها حقا بكل جوارحك؟ أصدقني القول.
- نعم أحببتها لكن بدرجة أقل مما أحببتك بقليل، وقد عَلِمتْ بذلك، علِمت أن في قلبي امرأة أخرى، لم يكن ذلك يشكل أي عائق، كان في قلبها هي أيضا رجل آخر، كانت علاقتنا من العلاقات التي ينطبق عليها المثل القائل : وافق شن طبقه، كلانا كان يعلم أنه يخون الآخر، كانت تتخيلني في كل الأوضاع الحميمية مصطفى، وكنت أتخيلها أنا أنتِ، كانت خيانة ذهنية صريحة تقبلناها على مضض.

- أكرهك.
- أعرف ذلك، أعرف أنك لم تسلمي من هذه الخيانة الذهنية كذلك، لكن ما أجهله هو هل أحببت زوجك أم لا.

صفعته صفعة خفيفة، لم يرقها هذا السؤال، بدا لها سؤالا ماكرا، فردت بلغة يشوبها بعض العنف.

- حاولت أن أحبه ففشلت، كان ثقيل الظل، أو لعل نفسي كانت تصوره كذلك، كنت الشيء الوحيد الذي يشغل بالي، تضرعت بكل دعاء لكي أنساك ، لكنك كنت تحتلني، كنت أشعر بلمساتك وكأنها حديثة العهد، وطعم شفتيك حتى أني كثيرا ما قمت للمرآة أمسح شفتي لعلي أطرد هذا الإحساس، وكان صوتك يأتيني من كل مكان، اعتقدت نفسي مسحورة غير ما مرة، دعنا من هذا الآن، وأجبني عن سؤالي ماذا عن تلك المرأة؟
- سأنساها.
- سيكون أول ما نفعله حينما نبلغ بني ملال، هو الزواج، سنتزوج.
- ماذا ؟
- سنتزوج، هذا أمر.

أذعن لقرارها وتزوجا وعاشا معا. رابتها منذ الأسبوع الأول الكوابيس والأحلام المزعجة التي تراوده وتلك الحوارات الغريبة التي يعقدها في نومه، واستيقاظه كل صباح منهكا، وهو يشتكي ألم قدميه ويتفحصهما، استفسرته عن ذلك غير ما مرة، لكنه أبى أن يحدثها بشيء، بل أبى حتى أن يتذرع بأي عذر.. تكرر الموقف أثار فيها فضولا كبيرا، اتصلت بمحمد

الحارس في السجن لتستفسره لعله يقدم لها بعض الإضاءات حول الموضوع، فقد ظنت أن برودة السجن، وضغوطه هي التي خلفت هذا الألم في قدميه وتلك الكوابس، كان الجواب الذي تلقته صادما من محمد، أخبرها أن جمال مر بأزمة نفسية شديدة وكان يتعاطى الدواء، واستفسرها إن كان جمال ما يزال يأخذ الدواء، اعتذر عن نسيانه إخبارها بالأمر. شكرته على ما قدمه لها من معلومات، جفاها النوم تلك الليلة، أحزنها حال جمال، شعرت أنها الملامة على كل شيء، تظاهرت بالنوم، حتى غفا، فأخذت تنظر إليه بعطف كبير، كما تنظر الأم الرؤوم لصغيرها، ما إن دنا الفجر حتى داهمها سيل من النوم كسر إرادتها في السهر، ثم ظهر حسن وحمل جمال في لمح البصر، ليطوف به الجبال والوديان قبل أن يلتهم ضوء النهار ضوء القمر.

عماد عشا

أي عالم هذا الذي أقحمت فيه، أو قل إني أقحمت نفسي فيه. كيف فكر الإنسان في بناء السجون بهذا النظام المقيت؟ كيف فكروا في معاقبة الآثمين بسلبهم حريتهم؟ هل الحرية فعلا هي أثمن ما يملك الإنسان؟ ماذا عن المجنون والمشرد أليسا يمتلكان الحرية؟ لكنهما أسوأ حالا من كل هؤلاء النزلاء ؟ ليس سلب الحرية إذن هو العقاب الحقيقي، بل ما يترتب عن سلبها. تلك الأحاسيس المرهفة المتدفقة التي تتخشب، ورؤيتك الشمس من النافذة فيخيل إليك أنها تبتسم، بحثك عن القمر من خلال النافذة فلا يتاح لك رؤيته، لأنه قد يخذلك ويستقر فوق الزنزانة. تلك الرغبة التي تشتعل بداخلك فلا يطفئها إلا النظر إلى وجه امرأة، وذلك الحنين إلى سماع صوت أنثوي حالم، تلك الأشياء التي لا وجود لها هنا..